مشروع القرن الثقافى

روايات مصرية للجيب 6

فى كل رواية متعة دائمة

سلسلة الأعداد الخاصة



سافارى

P.C.R



د. أحمد خالد توفيق

مقدمة سافارى

اسمى (علاء عبد العظيم) ... طبيب مصرى شاب يجاهد - كما يقول الغلاف - كى يبقى حيًا ويبقى طبيبًا ..

وحدة (سافارى) هى البطل الحقيقى لهذه القصص ، و(سافارى) مصطلح غربى معناه (صيد الوحوش فى أدغال أفريقيا) وهو محرف عن لفظة (سفرية) العربية ..

لاحظت أن أكثر الأصدقاء يضيفون حرف ألف بين الراء والياء لتتحول الكلمة إلى (سافاراى) .. لا أعرف فى الحقيقة سبب هذا الخطأ ، لكنه خطأ شائع شبيه بتلك الألف الشيطانية التى يكتبها الجميع بعد (واو) ليست (واو جماعة) على غرار (أرجوا الهدوء) . ولو كنت ترغب فى معرفة النطق الغربى للفظة (سافارى) فلتتخيل أنها (صَفَرى) بفتح الصاد والفاء ..

وحدة (سافارى) التى نتكلم عنها هنا لا تصطاد الوحوش ولكنها تصطاد المرض فى القارة السوداء ، وسط اضطرابات سياسية لا تنتهى وأهال متشككين وبيئة لا ترحم ..

الوحدة دولية لكن بطلكم الفقير المعترف بالعجز والتقصير شاب مصرى عادى جدًا ، فقط وجد كثيرًا من عوامل الطرد فى وطنه فانطلق يبحث عن فرصة فى القارة السوداء .. انطلق يبحث عن ذاته ..

هناك وجد التقدير .. وجد المغامرة .. وجد الحب .. الطبيبة الكندية الرقيقة (برنادت جونز) التى صارت زوجته .. ثم هناك الفيروسات القاتلة والقبائل المعادية والمرتزقة الذين لا يمزحون ، والعلماء المخابيل وسارقى الأعضاء ..

هناك ـ كما قلنا ـ من العسير أن تجمع بين شيئين : أن تظل حيًا وتظل طبيبًا .. لكنك تحاول .. فى كل يوم تحاول ..

هذه المحاولات هى ما أجمعه لكم وأقصه لكم فى شكل قصص .. وقصصى هى خليط عجيب من الطب والميتافيزيقا والرعب والعواطف والسياسة ..! لا أعرف إن كان هناك مجنون آخر قد جرب أن يصب هذا الخليط فى كئوس ويقدمها لكم ، لكنى لم ألق هذا المجنون بعد إلا فى مرآتى ..

تعالوا نبدأ وسنفهم كل شىء .....

تمهيد

ـ1ـ

الحياة تمضى على وتيرتها المعتادة فى وحدة سافارى الكاميرون ..

مركز صغير لا يتناسب مع المنشآت الضخمة التى توفرها منظمة الصحة العالمية ، ولا يتناسب مع حجم ما يقوم به من عمل ، لكنه يحوى تلك الجذوة النارية المميزة لعمل الهواة الذين يحبون ما يقومون به .

يمكنك أن ترى زحام القرويين البؤساء يتدافعون بانتظار أن تهبط عصا الساحر لتلمسهم . كل هؤلاء جربوا ساحر القبيلة على الأرجح وفشل ، من ثم جاءوا يجربون سحر الرجل الأبيض .

ليس الكاميرون بلدًا متخلفًا أو بدائيًا بشكل خاص ، لكنه كأى بلد أفريقى يعانى عدم تجانس شديدًا .. المدينة ليست كالريف .. الأغنياء ليسوا كالفقراء ... هناك مائة شعب ومائة مستوى

اجتماعى . هذا يذكرك بمصر لكن بصورة أكثر وضوحًا وفجاجة . لهذا لا يلاقى الريفيون أى نوع من الرعاية الصحية تقريبًا .. هناك قبائل وأطفال عراة وراقصون حول النار بالرماح ، بينما العاصمة مدينة عصرية بها أثرياء وسيارات فاخرة ..

عدم التجانس .. لعنة إفريقيا الدائمة ومصدر كل الصراعات والغليان الاجتماعى .. بينما المجتمعات المستقرة مارست لعبة الأوانى المستطرقة ، فانتقل الثراء إلى الفقر ليصير المجتمع تقريبًا ــ أقول تقريبًا ــ فى مستوى واحد ...

★ ★ ★

هذا أنا (علاء عبد العظيم) الشاب المصرى ، بلحيتى التى ظهرت فيها بضع شعرات بيضاء ، وبجنونى واندفاعى الشهيرين . من الواضح أننى لم أجنح للعقل قط ..

هذه هى برنادت زوجتى الرقيقة الكندية التى تعالج الأطفال ولا تنوى ممارسة عمل آخر بقية حياتها . كلنا نحب الأطفال .. كلنا يعتقد أنه خلق للأطفال .. لكننا نحب الأطفال الذين يظهرون على علب الألبان المحفوظة بشرتهم الوردية ولطافتهم وخدودهم

المحمرة المكتنزة. عليك كى تزعم أنك تحب الأطفال أن تحب هؤلاء الأطفال سيئى التغذية ذوى الكروش المنتفخة بفعل الجوع لا الشبع ، وأمراضهم الجلدية ، والحشرات فى شعورهم والقروح فى أقدامهم وعوائهم المستمر .. أنا لم أستطع . أشفقت عليهم لكن لم أحبهم .. برنادت استطاعت ..

إن حياتنا تمضى هادئة فلا يحدث شىء جديد على الإطلاق ..

أمس استدعانى البروفسور (بارتلييه) البدين مدير الوحدة إلى مكتبه .. السابعة مساء طبعًا ..

كان يجلس هناك خلف المكتب وسكرتيرته الحسناء ترتب بعض الأوراق فى خزانة الأوراق خلفه ، وكان يعبث فى فأرة الكمبيوتر شارد الذهن .. إن بطنه العملاقة ترغمه على أن يبتعد عن المكتب كثيرًا ، لذا يحمل لوحة المفاتيح ليضعها على بطنه ..

إن بقاء هذا الرجل حيًا لمعجزة .. لا أشك لحظة فى أنك لو قطعت شريانًا من شرايينه لسال السمن منه .. (السميذ) هى الكلمة التى اختارها الأطباء العرب القدامى العباقرة لوصف

تصلب الشرايين ، وهى لفظة دقيقة جدًا لأنهم لاحظوا أن الشريان المقطوع يسيل منه شىء كالعجين . كالسميط السائل ..

قال لى وهو يلهث :

ـ « علاء .. سيكون هناك خبير فيروسات فى الوحدة غدًا .. إنه من معهد باستير .. زميل قديم اسمه (ميشيل بوردو) .. »

كل هذا جميل .. لكن ما علاقتى بهذا ؟

قال وهو ينظر للشاشة :

ـ « أرجو أن تعنى به أنت وزوجتك قدر الإمكان .. لست فى وضع يسمح لى بتعيين مرافق له .. أريد أن يحظى بأفضل عناية ممكنة وأنا أعرف أنك قمت بهذا الدور مرارًا .. »

ـ « لكنى يا سيدى أسوأ من يرافق خبير فيروسات .. أنت تعرف أننى لا أفقه هذا الكلام .. »

ابتسم فارتج الشحم فى لغده الضخم وقال

ــ « طلبــت مرافقًا ولم أطلب مــن يعلمــه شـيئًا جديدًا ... لو جئت عندك فى مصر لأمكنك أن ترينى الهرم والنيل من دون أن تكون خبيرًا فى الهندسة الجزيئية .. »

عدت أقول محاولاً التملص :

ــ « جــدول النوبتجيــات ممتلئ والدكتــور باركر لن يقبــل أن .... »

ــ « أنا أعفيك منه .. سيتصرف باركر من دونك .. »

ــ « أرجو أن تخبره يا سيدى .. »

ــ « تأكد من هذا .. »

هكذا خرجت من الغرفة وقد تحولت إلى مرشد سياحى بــرغم أنفى ، وهو دور قمت به مرارًا فى هذه الوحدة ..

★ ★ ★

كان البروفسور (بوردو) فرنسيًا جدًا .. له عينان صغيرتان لا تصدق أنه يرى بهما حقًا .. كل الفرنسيين لهم هــذه العيــون

الصغيرة المرهقة الشبيهة بثقبين فى الجمجمة. ملامــح وجهــه رقيقة ناعمة شبه أنثوية. تذكرت ما قاله جنــود بونــابرت فــى مصر ، عندما أبدوا إعجابهم بالتقاطيع القوية الرجولية لوجــوه المصريين .. صحيح أنهم قالوا كذلك إن المصريين يجلسون على المقهى طيلة اليوم يدخنون النارجيلة ولا يفعلون أى شىء ، لكــن هذا يجعل شهادتهم أقرب للمصداقية ، فهى ليست سـلبية كلهــا ولا إيجابية كلها .

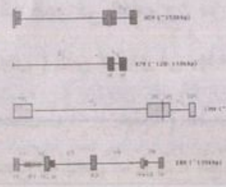
كانت مهمتــه محددة جــدًا هى دراســة الخصائص الجينيــة لفيروس لم يبد أنه ظهر فى الكاميرون من قبــل ، وهــو مــن فيروسات (الهربس) التى لا تبدو لى بهذه الأهمية ..

فى المختبر خصصت له (هيلجا) الشمطاء مــدير المختبــر غرفة صغيرة تسمح له بعمل ما يريد ، مع إمكانية أن يقوم بعمل تحليل لجينات الفيروس الوراثية ..

بالطبع لم يكن لى نفع كبير فى هذا الموضــوع ، لــذا عــين (بارتلييه) له مساعدين هما الطبيب اليابانى (ماتسيجورا) والطبيبة

الفنلندية (آنو تويفـو) .. وهمـا شـيطانان يعـشقان العمـل ولا يتعبان أبدًا .. (ماشيجورا) يبـدو كـأى يابـانى آخـر ، و(آنو) تبـدو كولد ظـريف قصـير الشعر فارع الطول نحيل جـدًا ..

كانوا يقضون سحابة النهار فى المختبر مـع تلـك الأجهـزة المعقدة المخيفة ، ويمضون وقتًا طـويلاً جـدًا أمـام شاشـات الكمبيوتر حيث ترى صورًا معقدة مثل هـذه .. الـصور التـى اعتدت أن أتجاهلها تلقائيًا وأنا أدرس . ولو حاولت التدقيق فيها فلن أفهم حرفًا .



عند الخامسة مساء يصير الرجل حـرًا ، فآخـذه معـى أنـا وبرنادت لجولة فى الوحدة أو نصطحبه لبيتنا الـصغير الـشبيه بالفيلا خارج الوحدة ، حيث نشاهد بعض الأفلام ونأكل البسكويت

الذى تصنعه برنادت .. أحيانًا نذهب بسيارة الوحدة إلى القـرى المجاورة أو نجوب إنجاوانديرى ..

كان متزوجًا وله ثلاثة أطفال هناك فى بـاريس ، وأعتقـد أن حياته كانت مملة نوعًا لأنه لم يكن يرى لنفـسه مكانـًا خـارج المختبر ..

قلت له ذات مرة فى انبهار :

ـ « أنت عالم ناجح .. لابد أنك سعيد بما حققت .. »

من الغريب أنه لم يبد متحمسًا على الإطلاق .. قال فى شـىء من الهم :

ـ « ما زلت أشعر أن حياتى لم تبدأ بعد .. هناك ذروة ما من المفترض أن أصل لها تشبه ذروة الفيلم السينمائي ، لكنهـا لـم تأت بعد .. ولو لم تأت لكان الفيلم سخيفًا تافهًا لا قيمة له .. لو إننى مت الآن فلن يتذكرنى أحد أكثر من عام .. »

كان هذا غريبًا .. لم أعرف أن علماء الفيروسـات يـشبهون الشعراء فى حالة عدم الرضا التام هذه .. أسوأ الشعراء الـذين

عرفتهم هم الراضون عن أنفسهم وما حققوه .. يبـدو أن هـذا الشعور يتكرر هنا ومن الواضح أنه ممض ...

كانت الذروة قادمة فى حياة الرجل ، ولم أدر أنهـا سـتجىء بهذه السرعة .. ولم أدر أنها ستمس حياتى ذاتها ..

دعنى أقص عليك كيف حدث كل شىء ..

– 2 –

فى البدء كانت تلك القردة الثلاثة ...

لقد اصطادها بعض الرجال من الغابة القريبة .. وقد عـرض مترجمنا المعتمد (بودرجا) الأمر على المـدير فوافـق علـى شرائها لأن المختبر بحاجة لبعضها ..

قردة جميلة هى يبلغ الواحد حجم قط كبير ، ذات لون أخـضر زاه يلمع كأنها مغلفة بالسيلوفان . وكانت لها عيـون متـسائلة رائعة الجمال. كان سعرها رخيصًا لذا وجد المدير أنها صفقة .. إن قردة (ريزاس rhesus) باهظة الثمن وتكلفنا كثيرًا ، وطبعًا ليس واردًا أن تجرى التجارب على الشمبانزى أو الغوريلا لأنها غالية جدًّا والسيطرة عليها مستحيلة ..

فى القفص فى قسم علم الميكروبات وضعت تلك القردة. وقـد حاولوا جاهدين معرفة اسمها العلمي ، لكن لم يكن لـدينا أحـد خبير فى علم الحيوان أو التصنيف .. هكذا أطلقنا عليهـا اسـم (القردة الخضراء) .. هذا يذكرنى بـ (روس) الذى لم يكـن

يعرف أى شىء عن البعوض ، لذا أطلق على بعوضة الأنوفيليس عندما وجدها اسمًا علميًا رصينًا هو (بعوضة بنية) .

بدأ كل شىء مع العامل الكاميرونى (جورجى) الذى دخل ليطعم هذه القردة .. كانت تأكل بعض الحبوب مع الزبادى وفتات البيض ... يبدو أنه نسى واجب الحذر ، لأن قردًا صغيرًا عضه فى إصبعه .. وهى عضة تافهة على كل حال لا تزيد على ثقب تحدثه إبرة ..

قام بغسل إصبعه بالمطهرات ، واقترح عليه طبيب الميكروبات أن يأخذ حقنة من المصل المضاد للكزاز (التيتانوس) ففعل ذلك ..

فى المساء بدأ يشعر بألم فى كل عظامه .. وقد قدر أن سبب هذا أنه أصيب بالإنفلونزا .. أخلد للنوم فى كوخه بالقرية أملاً فى التحسن ..

فى الصباح ارتفعت حرارته جدًا ... بدأ يفرغ معدته وشعر بأنه غارق فى عرق بارد لزج .. لكنه ظل يأمل أن يكون هذا مجرد إنفلونزا يتحملها على قدميه ..

عند الظهر صارت عيناه حمراوين تمامًا بسبب نزف ما تحت الملتحمة ، وهو الوقت الذى حملته فيها زوجته حملاً إلى وحدة سافارى ..

عند المساء بدأ ينزف من أنفه ومن لثته ..

هنا فقط بدأ جرس الإنذار يدق ...

(آرثر شلبى) الطبيب الأمريكى المتبختر خبير طب المناطق الحارة جاء يفحص المريض .. طلب له بعض الفحوص لتجلط الدم وسرعة النزف كما أجرى عدًا للصفائح الدموية ..

كان يزداد قلقًا مع الوقت .. ولاحظ فى جزع تلك البقع الزرقاء التى بدأت تملأ ذراع العامل الكاميرونى والتى تراها بصعوبة بسبب بشرته الداكنة ..

وهكذا اتجه (شيلبى) لمكتب المدير حيث كنت أنا أقدم له بعض الأوراق ، فتهالك على مقعد وأشعل سيجارًا ـ وهو من المعدودين المسموح لهم بالتدخين هنا فى الوحدة ـ وأزاح خصلة الشعر الرمادية عن جبينه وقال :

ـ « هناك حمى نزفية يا (موريس) ! »

سقط القلم من يد (بارتلييه) ونظر فى ذهول إلى شيلبي ، ثم طلب منه أن يحكى القصة ..

كنت أنا أصغى فى رعب بدوري ، وبرغم أننى فضلت أن أظل صامتًا لأن هذا هو الأدب عندما يتكلم عملاقان علميان ، فإننى همست فى جزع :

ـ « ماربورج !! »

عندما تتكلم عن قردة وحمى نزفية فإن الناس يتذكرون على الفور فيروس (ماربورج Marburg) الشنيع .. الذى غزا مقاطعة (ماربورج) الألمانية عندما تم نقل قردين من أفريقيا إلى ألمانيا .. كان فيروسًا مرعبًا ولا يزال ، وفيما بعد انضم مع (لاسا) و(إيبولا) إلى قائمة الفيروسات الأخطر فى تاريخ البشرية ..

فيروس ماربوج يعنى الموت ولا شىء سواه !

قال شيلبى وهو ينظر لى ببرود :

ـ « معظم هذه الحميات النزفية يبدأ النزف فيها فى اليوم الرابع .. لكننا نتحدث عن نزف بدأ فى أول يوم .. لقد استبعدت الأسباب الأخرى لهذه الصورة مثل (التجلط الوعائى المنتشر DIC) وخلافه ... أعتقد أننا نتكلم عن فيروس جديد تمامًا ! »

قال بارتلييه وهو يقلب كفه المكتنزة :

ـ « آرثر .. هذه كلمة جريئة جدًا .. »

قال (شيلبى) بطريقته المبهرجة كأنه يقف على المسرح :

ـ « لهذا لن أعلن ما أفكر فيه .. سأنتظر فى قلق .. »

ـ « نعم . نعم .. اقلق .. القلق لن يكلفنا مالاً أو يرهقنا بالإجراءات أو يسبب لنا فضيحة علمية .. أرجوك أن تستمر فى القلق .. »

هكذا انتهت هذه المحادثة ، وأعتقد أننى نسيت ما قيل فيها .. لن أهتم كثيرًا بكل شخص ترتفع حرارته لسبب ما ونحن فى منطقة موبوءة أصلاً ... لن أقلق كذلك فهناك من تولى مهمة القلق عنى ..

– 3 –

حتى الصباح التالى ..

كانت هناك أخبار مقلقة عن أن العامل الأفريقى تدهور أكثر .. لقد صار النزف عامًا ، وقد قام الأطباء بإعطائه الصفائح الدموية والكثير من وحدات الدم مع تجربة بعض العقارات مثل الإنترفيرون .

هنا عرفنا أن عامل نظافة قد أصيب بمرض غريب .. آلام فى العظام .. ارتفاع فى الحرارة ثم استعداد للنزف ..

عند المساء كان ثلاثة قد أصيبوا بهذا المرض .. وفى جو الوحدة تسرب نوع من التوتر .. الأدرينالين كان فى الجو فعلاً ويمكنك أن تشمه ..

قال صديقى التونسى (بسام بو غطاس) :

ـ « لو كانت عضة القرد بدأت المرض فكيف أصيب الآخرون ؟ »

قلت وأنا أحك لحيتى :

ـ « مثل فيروس ماربورج .. يبدو أنه ينتقل بكل الطرق التى عرفها الإنسان .. هناك فيروسات توشك أن تنتقل من المؤلف للقارئ لو طالع رواية له .. »

هى دعابة طبعًا لكن يبدو أن الأمر ليس بعيدًا جدًا عن هذا ..

بدأت بعض الحالات تصل من القرية لوطنيين ينزفون ، ثم بدأت الوفيات تظهر ..

هنا فقط دقت ساعة الوباء ، وقال (بارتلييه) وهو يجفف عرقه :

ـ « لدينا خبير فيروسات من معهد باستير .. لابد أن لديه رأيًا فى هذا كله .. »

★ ★ ★

فى الوقت نفسه تم التخلص من القردة ، وبدأت عملية التطهير المعقدة .. هناك كارثة فى سافارى ومن الواضح أن الوحدة صارت هى مصدر العدوى .. لكن أين وكيف ؟

هل هو الهواء ؟.. أم هو ما نأكله ؟.. أم هو اللمس ؟

على كل حال عكف خبير طب وقائى مع خبير أوبئة فى اتخاذ الإجراءات الضرورية ، وفى كل يوم كان مكان جديد يغلق لتشم من خلف الباب رائحة المطهرات القوية .. لقد كان هذا الوباء يتحرك بكفاءة ، ومن الواضح أن (بارتلييه) سوف يتصل بمنظمة الصحة العالمية اليوم أو غدًا .. لو كانت هذه حمى نزفية جديدة ، فمن الواضح أننا لا نملك القدرة على محاصرتها أو السيطرة عليها .

هذا هو السيناريو فى كل مرة تحدث فيها حمى نزفية ، لكننا فى هذه المرة نتحدث عن مرض سريع الفتك يسبب الأعراض فى اليوم الأول وهذا غير معتاد ..

هنا يبدأ الجزء الشخصى من الموضوع ..

عندما يكون الخطر عامًا يصير من الوقاحة والترف أن تتحدث بشكل شخصي ، والمصرى يقول منذ زمن : ما يسرى الجميع يسرى على أنا .. لكن الأمر ليس بهذه السهولة. الفيضانات

والزلازل تحصد الآلاف ، لكنها فى النهاية تتلخص فى شخص واحد تفقده هو من يهمك فى هذا العالم فقط .. إن زلزالاً فى ألاسكا شيء مخيف ، لكن حادثًا يقع لبرنادت أسوأ بكثير على مستوى عالمى الشخصى ..

هل أنا أنانى أم طبيعى جدًا ؟

عندما بدأت (برنادت) تتحدث عن آلام فى مفاصلها وصداع ، لم أكن مستعدًا للتفاؤل .. لماذا ؟.. لأننى أعرف ما سيحدث ... معى أنا بالذات تختلف الأمور .. العقدة اللمفاوية تحت ذقنى لن تكون نتيجة جرح أثناء الحلاقة بل هى سرطان لمفاوى .. السعال الخفيف ليس بردًا بل هو درن .. هكذا عرفت أنها على الأرجح أصيبت بالمرض ...

بعد يوم لم تكن هناك علامات مقلقة لكن حرارتها ارتفعت جدًا ..

(شيلبى) نصحنى بأن أبقيها فى معزل الأوبئة ما دامت الصورة لم تتضح بعد ..

ـ « هذا غريب .. لقد تعلمنا أن النزف فى الوباء الجديد يبدأ فى اليوم الأول .. لربما كانت مصابة بإنفلونزا لا أكثر .. أو فيروس من فيروسات الأربع وعشرين ساعة إياها التى تجعلك تلزم الفراش يومًا ، ثم ترحل فلا تعرف أبدًا ما كانت .. »

كنت قلقًا ومعى حق .. سوف يجدون الفيروس المسبب للوباء وربما يتمكنون من مقاومته ، لكن ليس قبل أن يفتك بعدد من القرابين البشرية ، فماذا لو كانت برنادت من بينها ؟

هكذا قصدت المختبر لأعرف ما قام به ذلك الخبير الفرنسى ..

كان يلبس ثيابًا واقية مع نظارة وقفازات وكمامة وكذلك فعل فريق العمل .. لم يصر الأمر بعد بالخطورة التى تجعله يلبس كرواد الفضاء ، وكانت هناك تعليمات بسيطة لمراقبة العدوى لكنها ليست صارمة جدًا .. فقط يشبه الأمر دخولك غرفة جراحة لا أكثر ..

هكذا لبست مثله ووضعت الكمامة ودخلت ، حيث كان عاكفًا على أحد الأجهزة .. رآنى فهز رأسه محييًا ثم قال :

ـ « حاول ألا تلمس شيئًا .. نحن نقوم بتكبير الحمض النووى RNA الخاص بهذا الفيروس .. سوف نجرى فحصًا لمعرفة تتابع القواعد .. »

* * *

هنا يجب أن أتوقف لأشرح بالتبسيط المخل معنى هذا الكلام ..

لو لم تكن ذا ثقافة طبية فلا تقلق .. سأحاول التبسيط إلى أقصى حد .. وفى النهاية يمكنك أن تتحرك مع القصة ، ولسوف تفهم أكثر مع كل خطوة حتى لو لم تكن تريد تفاصيل علمية ..

يحمل الفيروس صفاته الوراثية فى شريط حمض نووى قد يكون من نوعية DNA مثل التهاب الكبد (بى) أو RNA مثل التهاب الكبد (سى) .. الحمض النووى هو الذى يشكل الجينات ، وهو اسم يعرفه الجميع اليوم ونراه كثيرًا فى الصحف ..

يجد العلماء قطعة صغيرة جـدًا من هـذا الحمض النـووى ، فيكون عليهـم أن يكبروهـا ويضـاعفوا حجمها ليتمكنـوا من فحصها .. كأنك تجد قطعة من سلسلة فتقوم بإضافة طول علـى الجانبيـن ..

فى الماضى كان هذا شبه مستحيل حتى تم التوصل إلى الـ PCR .. لو كانت اختراعًا عربيًا لكان اسمها (ت. س. ب) أى (تفاعل سلسلة البوليمريز)(•) ..

العالم الأمريكى (كارى موليس Kary Mullis) هو الذى اكتشف هذه الطريقة عام 1984 ونال عنها جائزة نوبل عام 1993 .. بالطبع هناك جدل كبير حول كونه صاحب الفكرة فعلاً أم انتحل عمل فريق كامل لنفسه ، وحول ما إذا كان مجنونًا كقملة أم لا ، لكن هذا ليس موضوعنا هنا ..

هناك إنزيم معين اسمه (البوليمريز Taq) يقوم بإطالة قطعة الحمض النووى من الناحيتين ، فى ظروف معينة من التسخين والتبريد بشكل دورى .. تستطيل القطعة فتصير دعامة لاستطالة

(•) Polymerase Chain Reaction.

أكثر فأكثر .. وفى النهاية يصير لديك كم هائـل مـن الحمـض النووى تفحصه كما تشاء .

هكذا يمكنك دراسة الجينات ودراسة تركيـب الفيروسـات .. يمكنك معرفة كيف يصنع الفيروس البروتين .. يمكنك أن تجـد قطرة دم جافة فى مسرح الجريمة فتعرف صاحبها .. تجد شعرة فتعرف من رأس من .. ما فعله علماء فـيلم (حديقـة العـصر الجوراسى) هو أنهم وجدوا بقايا قديمة من دم الديناصورات فى أمعاء البعوض .. عن طريق هذه البقايـا اسـتكملوا الحمـض النووى المسئول عن تكوين ديناصور كامل ..

يمكنك أن تثبت بنوة طفل .. يمكنك أن تحدد كم الفيروسـات الذى أصاب شخصًا ما مهما كانت كمية الفيروس ضئيلة ..

إن اختبار PCR هو ثورة حقيقية فى تاريخ الطب .. وعـن طريق هذا الاختبار سوف يتمكن (بوردو) من تحديد تركيب هذا الفيروس بدقة .. فقط أعطوه الوقت ..

* * *

قال لى (بوردو) وهو ينظر لشاشة الكمبيوتر :

ـ « أنت تعرف أن الحمض النووى يتركب من وحدات .. كل وحدة تدعى (نيوكلوتيد) .. يتحدد التركيب حسب تتالى القواعد على طول الشريط .. »

القواعد فى حالة الحمض النووى RNA هى أربع :

أدنيــــن --------- ونرمز له بالرمز A

يوراسيل --------- ونرمز له بالرمز U

جــوانين --------- ونرمز له بالرمز G

سايتوسين --------- ونرمز له بالرمز C

إن هذا التتابع هو حروف الشفرة التى تحدد صفات الفيروس ..

مثلاً قد نجد الحمض النووى يتخذ هذا الشكل :

AUCGAUAUAUAAUUAUAUAU

أى أننا ـ من اليسار لليمين ـ نتكلم عن أدنين ـ يوراسيل ـ سايتوسين ـ جوانين ـ إلخ ....

ومن هــذه التبــاديل والتوافيق تأتى عشرات الاحتمالات وكل البروتينات التى نعرفها ..

بالطبع عنــدما يبنى الجسم شريطًا مقابلاً لهــذا ، فإنه يضع اليوراسيل أمام الأدنين ، ويضع الجوانين أمام السايتوزين .. لن أدخل فى التفاصيل أكثر منعًا للارتباك ، فمهما قلت سيجد الأطباء هذا الكلام بدائيًّا ، بينما غير الأطباء سيجدونه معقدًا أكثــر مــن اللازم ..

هذه شفرة تفهمها الخلية وتقوم بالترجمة طبقًا لهـــا .. هــذه الشــفرة هى التى تجعلك فــارع الطــول ولــون شــعرك أسود وعضــلاتك قوية ، وتجعــل عينى هــذه الفتاة ساحرتين وأنفها كبيرًا .. هذه الشفرة تحدد إن كنت ستصاب بالسكرى يومًا مــا ، وإن كانت مناعتك جيدة أم لا ، وإن كنت ستملك موهبة فى الرســم أو الموسيقا أو لا تملك أية موهبة ..

فيما بعد تترجم الخلية ترتيب شفرة القواعد هذا إلى أحمــاض أمينية ، والأحماض الأمينية هى اللبنات التى تصنع البروتين ..

قال بوردو :

– « سوف نصل لتركيب القواعد فى الفيـروس .. مـن ثـم نعرف كل شىء عنه .. سوف نقوم بتركيب مصل ولقاح بسرعة قصوى .. من يدرى ؟.. ربما كانت هـذه الـذروة التـى كنـت أنتظرها فى قصة حياتى منذ البداية .. الذروة التى تنتهى بفـوز بطل القصة أو هلاكه .. »

قلت وأنا أنظر إلى شاشة الكمبيوتر :

– « أرجو أن تفعلوا هذا بسرعة .. أخشى أننى موشك علـى فقد زوجتى .. »

قال باسمًا باعتبار هذا ليس شأنه :

– « لا أحد يستطيع أن يسبق ظله .. تذكر هذا ... »

– 4 –

هكذا بدأت القصة فعلاً ...

فى المساء جلست جوار فراش برنادت فى المعزل ، ولثمـت أناملها .. كانت نائمة بعمق .. لاحظت فى قلق أن هناك بقـع دم صغيرة على ساعديها تحت الجلد. لاحظت كذلك أن هناك خيط دم يخرج من أنفها ..

إذن هو ... .

قال لى (شيلبى) وهو يتحسس جبينها بظهر يـده المغطـاة بالقفاز :

– « إنها نائمة .. لا تزعجها .. سوف تشفى .. لا تقلـق .. نحن نحقنها بالدم وصفائحه ونعطيها بعض مضادات الفيروسات .. نقوم كذلك بفصل البلازما من دم أحد الناجين .. هذا الدم سيكون مصلاً لا بأس به لها .. »

قلت بلا اكتراث :

– « معظم من ماتوا أخذوا هذا كله .. »

أرجوك أن تسرع يا (بوردو) ... أرجـو أن تجـد التتـابع المطلوب بسرعة ..

لا أعرف متى وضع شيلبى يده على كتفى مشجعًا ، ثم غـادر الغرفة .. كنت أضع قناعًا على وجهى مع القفازات ، لكنى قدرت أنه لو كان فيروسًا فى شراسة (إيبولا) فلا منجى لى .. لكـن من يهتم ؟.. بالفعل لا يعنينى كثيرًا أن أصاب بالوباء أو لا أصاب ما دامت برنادت مصدر العدوى .. يصعب علـى أن أتخيـل أن فيروساتها شرسة أو وقحة .. لابد أنها فيروسات رقيقة شـفافة مثلها ..

كنت غارقًا فى هذه الأفكار الطفولية عندما غلبنى النعاس ... .

غبت عن العالم وأنا راقد على ساعدها ..

وفى منامى رأيت خمس رؤى ، بعضها ذو طابع طبى وبعضها لا .. بعضها عشته فعلاً وبعضها لم أعشه .. كنـت بطـلاً لهـا جميعًا ... هذا طبيعى لأن المرء يدلل نفسه فى أحلامـه .. أنـا المنتج ، فلا يمكن أن يكون هذا حلمى وأعطى بطولته لبراد بيت أو كلونى ..

كان كل حلم من هذه الأحلام يحمل لى لمحة ما .. يشى بجزء من الشفرة الخاصة بالفيروس ..

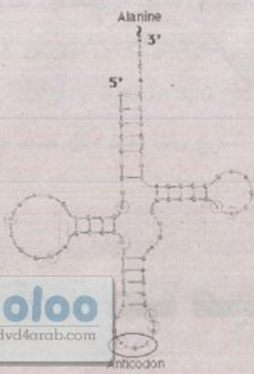
حلم يهمس لى بـ GGA ..

حلم يهمس لى بـ ACA ..

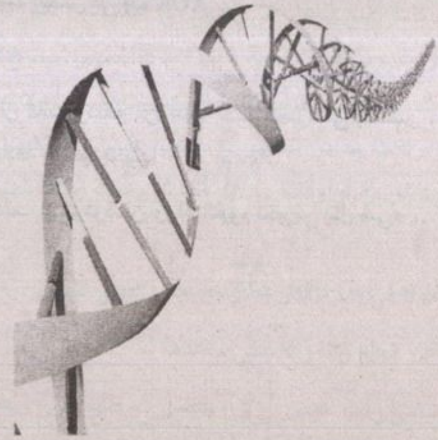
إلخ ....

هل كانت رسالة من عالم آخـر تخبرنــى بالـسر ، أم أنهـا مصادفة يصعب تخيلها ؟ ... أم ..؟..

كانت هناك قوة من وراء الغيوم تخبرنى بكل شىء ....



تتابع القواعد الأول



قصة حب صيفية

- 1 -

كنت أحبها كثيرًا ...

يجب أن أعترف أننى أنهيت قدرًا هائلاً من مخزون الرومانسية والحب الموجودين عندى قبل الزواج بأعوام طويلة ، لدرجة أننى لم أجد سوى خُمس المخزون لدى عندما تزوجت ..

هناك فى شبرا حيث كل شىء حميم وحيث الشوارع تعرفنى وتحفظ ملامحى .. ليست بأجمل مكان فى العالم ، لكنها المكان الوحيد الذى لا أمشى فيه بضع خطوات من دون أن أقابل شخصًا يعرفني ، أو أخطو فى مكان شهد مشاجرةً أو فرحةً لى فى طفولتى .. كل ركن وكل شارع وكل مقعد وكل كشك سجائر له مكان ثابت فى ذكرياتى ..

هناك فى شبرا حيث الفتيات جميلات جدًا ويدركن جيدًا أنهن فتيات ، وحيث الأولاد حارو الدماء يشعرون بأنهم رجال جدًا .. هناك فى شبرا كانت مراهقتى ..

كانت هى هناك . وكنت أحبها كثيرًا ..

★ ★ ★

لا أعرف متى صارت هى من حقائق حياتى ..

كنت طالبًا فى المدرسة الإعدادية على الأرجح عندما زرت صديقى (أشرف) فى بيته ، وهو حدث نادر لأن بيته بعيد فعلاً ، ولأن أهلى لم يكونوا يحبون أشرف ، ولأن طبيعتى المشاغبة جعلت لى عداوات كثيرة فى الحي ، بدءًا ببعض الفتية الذين ضربتهم ، ومرورًا بالكلاب الضالة التى رميتها بحجر. أذكر ذلك اليوم جيدًا لأن الصيف كان يلفظ أنفاسه الأخيرة وذلك الجو الكئيب المنذر باقتراب المدارس يلوح فى الأفق .

الطقس حار خانق والعرق يلوث كل شىء ، والناس تمشى فى الشوارع غائبة عن الوعى تقريبًا. وأنا أركض فى الطريق تحت الشمس الحارقة قاصدًا بيت أشرف صديق عمرى البدين ..

كنا نمضى اليوم فى اللعب .. نجرب كل شىء تقريبًا لكن كرة القدم كانت هى الأهم ..

عدنا من المباراة لاهثين فجلست أنا على الدرج ملوثًا بالعرق ألهث .. كان الظل رطبًا منعشًا فطلبت منه كوبًا من الماء البارد من الداخل. لسبب واضح لم يكن أحد يرحب بنا داخل البيت ونحن نشبه الخنازير المتربة الغارقة فى العرق ..

دخل أشرف ليحضر لى كوب الماء بينما جلست أنا أجفف عرقى .

هنا سمعت الخطوات .. خطوات رشيقة لن أنساها أبدًا ..

رفعت عينى فى شىء من التردد ، فرأيت غزالاً أسمر هيابًا تنكر فى شكل فتاة من سننا .. سمراء نوعًا واسعة العينين تنظر للعالم تلك النظرة التى تمسح الأشياء من الغبار مسحًا .

ـ « صباح الخير .. »

قالتها همسًا وهى تمر بجوارى مسرعة لتدق باب الشقة المواجهة ، ثم تغيب فى الداخل على الفور ...

كما يحدث لوهج الفلاش الذى يترك أثرًا على شبكيتك لفترة بعد رحيله ، فإنها تركت فى روحى أثرًا ظل نصف دقيقة ..

ماذا كانت تلبس ؟.. لا أعرف .. إنهما العينان اللتان تنسيانك أن هناك أعضاء أخرى فى الوجه .. دعك من أن أية فتاة لم تكن تكلمنى فى هذه السن ، مما جعل تأثيرها مضاعفًا ..

وعندما عاد أشرف بكوب الماء البارد سلخته سلخًا ، مازحًا عن الفاتنات اللاتى يسكن فى البناية معه .. لم يفهم ما أقصده ..

من المعتاد فى مزاح المراهقين أن هناك منطقة تابوو تتعلق بالبيت والجيران لا يتطرق لها المراهق أبدًا ، لهذا لم يبد مرحًا أو على استعداد للكلام .. القريبات والجارات خارج أى كلام أو أى مزاح ..

فى النهاية قال لى بصوت خفيض :

ـ « اسمها (نجلاء) .. »

ـ « معلومات قيمة .. لم تحك لى عنها قط .. »

احمرت أذناه وقال :

ـ « لست مسئولاً عن تقديم تقرير عن كل جاراتى .. هى من المنيا .. صعيدية .. قريبتهم وتأتى هنا فى الصيف كل عام .. »

بدا لى غريبًا أن تقوم بالتصييف فى شبرا. عرفت رجلاً من القاهرة يقوم بالتصييف فى قنا كل عام وقد بدا لى هذا غريبًا . لكن من الغريب فعلاً أن تجد فتاة شابة ما يصلح للتصييف فى شبرا كل عام. لماذا لا تذهب للإسكندرية بعيدًا عن الحر ، وحيث يمكنها أن ترى البحر ؟

قلت له :

ـ « جميلة .. »

احمرت أذناه أكثر وانتزع كوب الماء الفارغ من يدي :

ـ « أولاً أنت لا تفهم شيئًا .. بالنسبة لى أية فتاة غير بيضاء وغير ممتلئة لا وجود لها .. »

ـ « إذن الأرنب الأبيض السمين الذى تربيه أمى هو أروع شىء فى العالم .. »

ـ « ثانيًا لا أريد قلة أدب ما دمت فى (حتتنا) .. »

هكذا صمتت لكن تأثيرها على روحى كان غريبًا .. كأنه النعناع الذى يظل موضعه رطبًا فى فمك فترة طويلة ..

كنت مراهقًا بالطبع ، فلم أضيع وقتى فى محاولة فهم نفسى .. هل هذا حب أم هو حب الحب ؟ ولم أكن أعرف الكثير عن النضج وعدم النضج ، والسطحية التى تجعلك تحب فتاة لأن شكلها جميل فقط .. كل هذا كلام فارغ يقوله الكبار بكثرة لأن أرواحهم بردت ، ومن السهل على من بردت أرواحهم أن يتعقلوا . ولم يكن يعنينى على الإطلاق .. فقط عرفت أننى أريد أن أراها بكثرة .. أراها طيلة الوقت ...

ومع اللقاء الثانى فى ظروف مماثلة ، عرفت أنها جميلة جدًّا وأننى لا أريد أن أتعقل .. لم أكن أحب الأغانى الأجنبية ، لكننى رحت أدندن أغنية (إيزاك هايز) :

– « لو كان حبك خطأ فلا أريد أن أكون على صواب .. »

اللقاء الثالث كان حميمًا أكثر ..

كنت أقف هناك أمام باب بيت أشرف أرسم بقطعة من الطبشور على الأسفلت .. لم أدر متى ظهر هذا الظل ، ولا متى دخلت هاتان القدمان الرقيقتان فى صندل أبيض الكادر. رفعت رأسى فوجدت ذلك الوجه الجميل الذى احمر بفعل الشمس ينظر .. لم تكن تنظر لى بل تنظر للرسم ..

توقفت عن الرسم فى حياء فقالت لى :

– « أرجوك أن تستمر .. إنها جميلة .. »

يحب أن أوضح شيئين هنا :

1 – لم أكن أرسم لأننى أحب ذلك ، بل هى فعلاً طريقة لاجتذاب اهتمامها .. أقرب إلى مصيدة نصبتها أنا أمام البناية أنتظر موعد عودتها ..

2 – هى لم تكن جريئة ، والرسم لم يكن بهذه الروعة ، لكن الرسالة الغامضة عبر الأجيال خرجت من قلبى فلمست قلبها .. وهذا ما جعلها تتوقف وتتكلم. الرسالة الشفرية التى تخرج من قلوب العشاق ، ولا تشعر بها ولا تفك رموزها سوى أجهزة فك الشفرة المعقدة لدى الأنثى.

قالت لى وهى تَرمق الرسم :

– « ما هذا بالضبط ؟ »

أشرت بأصابعى فى ارتباك إلى الرصيف وقلت :

ـ « هذا عالم خيالى .. عالم تمشى فيه الطيور وتحلق الأفيال فى السماء .. الناس تطير متى أرادت ولا تحتاج إلى جناحين .. أو .. إذا شئت الدقة ... هذه شخبطات لا معنى لها .. »

قالت وقد شاعت ابتسامة رائعة على وجهها :

ـ « جميلة .. جميلة جدًا .. »

كانت تحمل بعض الكتب الدراسية ففهمت على الفـور أنهـا طالبة ، وأنها بدأت الدروس الخصوصية كما يفعل معظم المدرسين قبل بدء الدراسة ذاتها .. السن والقامة .. غالبًا هى مقبلة على الشهادة الإعدادية إذن . فى ذلك العصر لم تكن الدروس الخصوصية شائعة وكانت مقصورة على الشهادات تقريبًا .. لا شك أن أهلها قرروا أن يجمعوا بين الإجازة والاستفادة .. لتذهب لشبرا لكـن لتأخذ درسًا خصوصيًا فى الوقت ذاته ..

إذن هى من سنى ..

ساد الصمت لفترة طويلة جدًا .. لماذا لا نجد كلمـات عنـدما نريدها ؟.. راح عقلى يبحث كالمحموم عن شىء ممتع يقـال .. التلفزيون . كرة القدم . الطقس .. الدراسة .. البصاق المدمم ..

الصداع .. التهاب ما بين أصابع القدم اليسرى .. الضفادع التى داست السيارات على قدمها ..

إن الحلاقين عباقرة فعلاً .. القدرة على خلق موضوع يُناقش فى أية لحظة هى موهبة ..

لا أعرف متى ولا كيف قالت لى :

ـ « بعد إذنك .. »

وتوارت فى الداخل وظللت أنا فى الشمس أواصل الـشخبطات على الأسفلت حتى رأيت القدمين الغليظتين لأشرف ..

هذه كانت نهاية الشهر .. ونهاية قصة ذلك العام .....

لم أعد أزور أشرف بعد رحيلها ..

لقد رحلت إلى بلد ترفرف فيه الملائكة ويحلم النمل الأخضر ، ويسكر فيه الفرسان بلا خمر وقد صرعهم حسن العذارى ، فـى ظلال الأشجار التى تحنو على النيل العظيم .. بلد اسمه (المنيا) لا أعرف عنه شيئًا .. لكن يبدو أن مثيلاتها يأتين منه ..

— 2 —

مر العام الدراسى الثقيل البطىء .. توبيخ .. توبيخ .. لوم .. لوم ..

على إننى فى كل مساء كنت أجلس فى حجرتى وحيدًا وأنظـر للسقف ، وأحاول تخيل ذلك الوجه الأسمر الجميل الذى زرع نفسـه فى داخلى للأبد. هناك خاتم من الروعة لا تبين معالمه ولا تستطيع التدقيق فيه ، لكنه رائع. أى إننى كنت غير قادر على رسم وجههـا أو وصفه لكنه هناك .. وسوف أعرفه بين ألف وجه آخر .. أنت تفهمنى .. لا يمكن رسم الشمس أو تذكر كيـف تبـدو ، لكنـك تعرف أنها الشمس ..

تافه ؟.. كل هذا من أجل فتاة لا أزعم أننـى رأيتهـا سـتين دقيقة ، لكنك تعرف كيف يفكر المراهقون ..

كنت أنظر لنتيجة الجدار مفكرًا .. يناير .فبراير .. مارس ... سوف يأتى الصيف قريبًا وينتهى هذا الكابوس. سوف يطلب أبى أن نصطاف لكن هذا سيكون فى بداية الصيف .. ترى هل تعـود فى نهايته ؟

لقد عادت !

هذه المرة لم يكن هناك كلام كثير .. حر أغـسطس والعـرق والشمس العمودية .. سألت أشرف عنها فقال بلا مبـالاة إنهـا جاءت كالعادة أمس ..

لم تظهـر فى أى وقـت انتظرتهـا فيـه ، وعندما رأيتهـا أخيـرًا قادمة مـن نهـاية الطريق بعد يـومين مـن الانتظـار جريت كالأبله برغم أن هـذا قـد يودى بحياتى لو أن أبًا أو أخًا لها رآنى ..

لم نتبادل كلمات ..

فقط نظرت لى ونظرت لها .. لقد كبرت عامًا وكذا فعلت أنا .. هى توغلت فى نهر الجمال ، بينما توغلت أنا فى غابة البـشرة الخشنة والحبوب فى الوجه والصوت الغلـيظ والـشارب ربـع النامى .. لكنى كنت فخورًا بنفسى ..

لم نتبادل كلمـات .. فقـط تلامسـت يدانا ومشـينا معًا كأننا أخوان ..

لا أعرف إلى أين مشينا لكننا كنا مصممين على الذهاب هناك. وقد سألتها وصوتى يرتجف لهفة :

ـ « ما هى النتيجة ؟ »

ـ « ليست رائعة ... لست ذكية جدًا .. وأنت ؟ »

خجلت أن أخبرها أننى حصلت على 98 % .. بدا لى هذا وقتها عارًا لا يجب أن أجهر به. قلت لها على الفور ودون مرحلة انتقالية فى الكلام :

ـ « سوف أذهب للمنيا وأطلب يدك .. يومًا ما .. غالبًا بعد سبعة أعوام ... »

ابتسمت وقالت :

ـ « لماذا سبعة ؟ »

ـ « الدراسة الثانوية ثم الجامعة .. هذا معقول .. »

ـ « وماذا لو دخلت كلية الطب أو الهندسة ؟ »

ـ « سأدخل بيتك بعد سبعة أعوام .. حتى لو كنت فى السجن .. هذا ما أعرفه .. »

لم تتكلم .. ولا أعرف كيف وجد كل منا أن فى يده قطعة من الأيس كريم .. ثم كوزًا من الذرة .. نمشى فى الخلفاوى والمارة ينظرون لها فى دهشة .. فأنظر لهم فى تحد .. تبًا لكم !.. أنا انتظرت هذه اللحظة عامًا كاملاً ولسوف أمزق كل من يعترض .. لقد صارت هذه اللحظات حقًا طبيعيًا لى بعد كل هذا الانتظار ..

تكرر اللقاء كل يومين بعد ذلك .. من الغريب أننى أدور حول بيت أشرف فى الأوقات التى أعرف فيها يقينًا أن أشرف غير موجود !.. لا أريد أسئلة فضولية ولا تدخلاً فى شئونى ..

قلت لها إننى جربت كتابة قصيدة عنها .. رحت أتلو عليها الأبيات التى كتبتها والتى حرصت على أن تكون من ذات بحر وقافية قصيدة كانت مقررة علينا فى المدرسة .. قصيدة محشوة بالسهاد والعينين والسحر واللحظ والفؤاد ... إلخ ...

قالت لى فى النهاية :

ـ « جيدة .. جميلة .. »

هذا هو أبلغ تعبير نقدى سمعته فى حياتى .. اقترحت عليها أن نتبادل الخطابات طيلة غيابها فضحكت كثيرًا ، وقالت إن هذا مستحيل لأن أى خطاب سيقع فى يد أبيها قبل أى شىء ..

انتهى الصيف فقالت إنها راحلة ... .

وكان علىّ أن أتنهد وأنا أنتظر عامًا آخر طويلاً من الألم ...

* * *

فى العام الثالث كانت هناك ..

يذكرنى الأمر بفيلم قديم مضحك لفؤاد المهندس وعبد المنعم مدبولي ، عندما كانا يلعبان الشطرنج فى السجن مع أحد النزلاء ، ثم يفرج عنهما فيخرجان وتتواصل الأحداث لربع ساعة حتى يتم القبض عليهما فيدخلا الزنزانة ، وعلى الفور يتربع فؤاد المهندس أمام السجين الذى يضع رقعة الشطرنج أمامه :

ــ « هيه ؟ ... لعبت ؟ »

كنا نواصل الكلام كأن عامًا لم يقطع سياق القصة . تعتذر عن شىء قالته آخر مرة وأضحك على دعابة سمعتها منها آخر مرة . ومع الوقت أدركت أننى لن أستطيع الاستغناء عنها أبدًا .. صرت

كالمراهقين فعلاً أشعر بأنها تمنعنى من العطب ، وأنها تقينى من الزلل .. بالفعل لم أكن أنظر لأية صورة عارية أو أسمع أية دعابة بذيئة .. إنها هناك دائمًا وأنا أشعر بخجل منها ..

قلت لها فى ترغيب :

ــ « ستة أعوام فقط وتكونين لى ! »

ابتسمت فى حزن وقالت :

ــ « هل تعتقد حقًّا أن الأمور ستتم كما نريد ؟.. العالم ملىء بمن اعتقدوا هذا ثم عرفوا أنهم مخطئون .. »

قلت بطبيعتى المشاكسة التى تحب التحدى :

ــ « سوف تكونين لى .. هذه هى الحقيقة والباقى تفاصيل تافهة .. »

ثم رحت أتلو عليها قصيدتى الأخيرة .. كان شعرى يتحسن بلا شك .. صار رديئًا بعد ما كان شنيعًا ..

ولما انتهى أغسطس قالت لى إنها راحلة من جديد ، فتمنيت لها عامًا سعيدًا .. سأكون هنا فى أول أغسطس من العام القادم ..

★ ★ ★

لكنها لم تظهر ثانية ...

توقعت هذا فى أسوأ كوابيسى لكن ـ ككل الكوابيس ـ لم أتصور أنه ممكن ..

التقويم على الجدار يقول بوضوح :

31 يوليو

Jul 31

أنزع الورقة .. بالتأكيد هذا أول يوم من أغسطس ...

أين هى ؟.. أمشى فى الشوارع كالمجنون وأفتش فى كل ركن .

فى النهاية هرعت إلى أشرف الذى لم أكلمه عنها منذ عامين. كان قد ازداد بدانة وهو يلتهم ثمرة خوخ ناضجة يسيل عصيرها

على ذقنه .. شبشب فى قدميه الغليظتين وهو يمشى بتؤدة فى شارعهم ..

ـ « أشرف .. أين نجلاء ؟ »

ـ « نجلاء من ؟ »

ـ « فتاة المنيا .. قريبة جارتك .. هل نسيت ؟ »

بدا عليه عدم الفهم .. لا يذكر أى شىء عن فتاة كهذه ..

ـ « السمراء التى لا تروق لك .. »

ـ « هل هناك فتاة سمراء لا تروق لى ؟ »

كدت أقتله ..

وهنا فطنت فى رعب إلى أن أحدًا لا يعرف شيئًا عنها سواه .. لا أعرف مكانها ولا عنوانها ولا رقم هاتفها ، ولو أصر هو على الإنكار فلابد أن أفحص حالتى العقلية .. ترى هل هى وهم ؟.. هل هى خيالات مراهقة ؟.. كم من قصة قرأتها ظل البطل يقابل فيها فتاة حسناء ، ثم عرف فى النهاية أنه لا وجود لها ؟

ـ « أشرف .. تكلم أرجوك .. »

ـ « عن أى شىء ؟ »

ـ « أنت تغار عليها .. أليس كذلك ؟.. لا تريد لوغد مثلى أن يحبها لأنك تحبها .. أليس كذلك ؟ »

قال فى غيظ :

ـ « لا أعرف أى شىء عن هذا .. لم أسمع عن فتاة اسمها نجلاء .. هل تريد أن نقرع باب جارتى لنسأل ؟ »

نعم .. سيكون هذا جميلاً .. ندق الباب .. هل لك قريبة اسمها نجلاء يا سيدتى ؟.. أنا أهيم بها حبًّا وقد وعدتها بأن أتزوجها بعد خمسة أعوام ..

سوف تطلب المرأة الشرطة أو يخرج زوجها بفانلته الداخلية وكرشه الضخم حاملاً سكين المطبخ ..

لا .. ليس هذا هو الحل ..

استجوبت أشرف ألف مرة ..

فكرة أننى مجنون لم تفارق خيالى وقد قبلتها .. لكن هل الجنون بهذا الوضوح والتجسيم ؟

لقد مر أغسطس وجاء سبتمبر بعلاماته الكريهة .. الليل يأتى مبكرًا .. رائحة الجوافة فى الثلاجة ورائحة الكراسات والممحاة الجديدة .. المانجو الحبيبة قد رحلت وجاء البرتقال ...

عام دراسى كئيب يبدأ .. هذه المرة بلا أمل .. لن يأتى الصيف بشىء مهم أو جميل ..

كنت أمشى قرب سينما التحرير القديمة شارد الذهن مكتئبًا عندما رفعت عينى .. رأيت المشهد الذى جعل شعر رأسى ينتصب ..

إنها نجلاء !.. نجلاء بثياب المدرسة الثانوية تمشى مع صديقاتها عائدات من المدرسة .. كدت أفقد صوابى وأجرى وراءها لكنى قدرت ما سيحدث . سيحسب كل الشارع أننى أعاكسها ، خاصة لو أبدت أنها لا تريد الكلام معى أو شيئًا من هذا القبيل ، ولسوف أتلقى علقة لا بأس بها ..

هكذا فضلت أن أمشى من بعيد وأراقب الموقف وأنا أدعو الله ألا يسمع الناس دقات قلبى العالية كالطبل ..

رأيتها تنفصل عن زميلاتها ثم تمشى بالــضبط باتجــاه بيــت أشرف ..

تصعد فى الدرج ثم تغيب فى الشقة المقابلــة لــشقة أشــرف بالطابق الأول ، وانغلق الباب ...

هنا اتجهت لباب أشرف وأوسعته ضربًا ... لما فــتح البــاب اندفعت للداخل ، ودخلت إلى غرفته فسألته فى لهفة :

ــ « إنها هنا ..هل رأيتها ؟ »

ــ « من ؟ »

ــ « نجلاء يا أحمق ! هل جاءت لتقيم هنا للأبد ؟ »

هنا بدأ يضحك .. يهتز كرشه ويضحك ويضحك ..

فى النهاية أخبرنى بكل شىء ... ليس اسـمها نجــلاء بــل (سحر) .. هى تعيش هنا لأن هذا بيتها .. قصة المنيــا هــذه اخترعها هو ليتسلى علي .. إنها جارته وصديقته منذ الطفولة ،

وهى عابثة تحب التسلية وتسخر علنًا وسرًا من طراز العــشاق الرومانسيين الأبله هذا ، لذا أخبرها أشرف بأننى أراها ســاحرة وأخبرهــا بكذبة المنيا هــذه . هكذا بدأت الفتــاة تستكشف هذا العاشق الأحمق غريب الأطوار .. فى أول صيف كانــت معرفــة سطحية ، لكنها ذهلت عندما وجدتنى أنتظر فى الــصيف التــالى وقد امتلأ رأسى بموضوع أغسطس هــذا . صــممت علــى أن تستمر وتلهو قليلاً ، وبالفعل صار الأمر أقرب لقصة حب خالدة فى رواية فرنسية .. عامًا بعد عام صارت هذه دعابــة شــهيرة بينها وأشرف .. هل جاء عاشق أغسطس الأبله أم لم يأت ؟

كنت لا أزور أشرف أبدًا فى غير أغسطس لهذا لم يحدث قــط أن رأيتها فى أى وقت من العام غير هذا الشهر ... ربما لأننــى لم أكن أبحث عنها واعتبرت غيابها قضية مفروغًا منها ..

ثم قررت الفتاة أخيرًا أن الموقف صار حرجًا وأن تعلقى صار مرضيًا لذا قررت ألا تظهر ثانية .. انتهت لعبة أغسطس .. ولم تغادر البيت طيلة أول أسبوع من شهر أغسطس هذا العام حتــى يقنط العاشق الولهان ..

قلت لأشرف وأنا أرتجف :

ـ « هل تعنى أننى قضيت ثلاثة أعوام من عمرى تقريبًا فى وهم ؟ »

ـ « بالضبط ؟ »

ـ « وأننى كنت أعانى لوعة الفراق بينما هى لم ترحل ، وكانت فى الشقة المقابلة لك وأنت كنت تعرف هذا ؟ »

ـ « نعم .. لا تقل إنه ليس مقلبًا رائعًا ! »

كان يتكلم وهو يقف جوار باب الغرفة ، وقد احتضن الوسادة ليتقى بها لكماتى .. كما تأهب للصراخ لو إننى أنشبت أسنانى فى حنجرته ، لكنه لاحظ أننى أدير ظهرى له وأننى صامت ..

أحتاج إلى وقت أطول من اللازم كى يدرك سبب صمتى واهتزاز كتفى ....

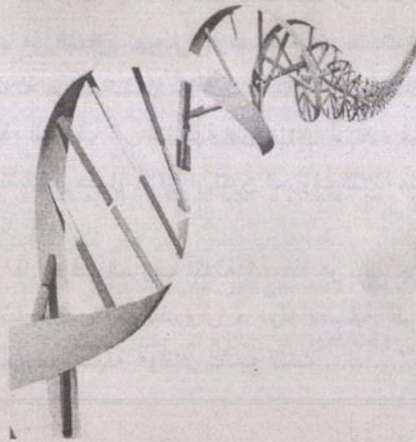
ببساطة كنت أبكى ....

أنت قرأت القصة .. كانت هناك ثلاث قواعد تم التلميح لها فى السياق . وبعبارة أقرب للفهم كان هناك تلميح لثلاثة حروف تتشكل من اللبنات GCAU .. قد تكون هذه الحروف غير متشابهة مثل GUA أو تضم حرفين متشابهين مثل GGA أو تكون الحروف الثلاثة متشابهة مثل AAA ..

هل عرفت الحروف الثلاثة ؟.. هذا هو ثانى جزء من الشفرة الوراثية للفيروس .. دوّنه بعناية على يمين الحروف السابقة ، وانتقل للتتابع الثالث ....

تلميح : هناك اختصارات لاتينية معروفة لأشهر السنة .. jan هو يناير . jul هو يوليو .. إلخ .. لعل الجواب اختصار مماثل .

تتابع القواعد الثانى



أيـن دمـى ؟

- 1 -

جو عام من التوتر والرعب ..

هناك من يجرى يمينًا ويسارًا وهناك ممرضة تحمل بعض زجاجات الدكستروز .. مسعفان يدفعان المحفة التى تحدث صوتًا يمكن أن يوقظ الموتى.

وفى الممر يقف (رجائى) مستندًا إلى حاجز زجاجى يراقب حركةَ التوتر العامة. يمارس ذات مشاعر الريشة وسط عاصفة ، أو بطة مطاطية تركها الأطفال وسط الأمواج .. لا دور له لكن كل شىء يقذفه يمينًا ويسارًا .. من الوارد أن يسقط أرضًا فى أية لحظة لو ضربه أحد المسعفين ضخام الجثة أو طبيب متحمس ..

رائحة الموت ..

يعرفها ويشمها بسهولة ..

إنه يمشى هنا .. يتسكع ويطل برأسه إلى داخل الغرف .. لا أحد يعرف ما يفكر فيه .. هل يبدأ بالضحية الأسهل أم يفوز بهدف لم يتوقعه أحد ؟.. ربما يأخذه هو بالذات ..

سمع صوت طبيب يصيح :

ـ « هل وجدت الفصيلة ؟.. بى سالب !! »

تهتف ممرضة وهى تركض من نهاية الردهة :

ـ « لا .. لا توجد أية وحدات من بى سالب .. »

هنا جرت الكلمات على لسان (رجائى) قبل أن يعرف ما يريد قوله :

ـ « هذه فصيلتى !... خذوا الدم منى ..! »

نظرة فاهمة تبادلتها الممرضة والطبيب. هتفت الممرضة وهى تجره من ساعده نحو المختبر :

ـ « هل لديك أية أمراض مزمنة ؟.. قلب ؟.. ضغط ؟ ... »

ـ « لا .. لا . لا تضيعى الوقت .. أنا بخير .. »

★ ★ ★

قبل أن أسافر إلى الكاميرون مباشرة للعمل فى وحدة سافاري ، كنت متوترًا قلقًا ورأسى أشبه بخلية نحل ..مئات الهموم والمخاوف ..

لهذا لم أرحب كثيرًا بزيارة صديقى العتيد (رجائى) .. الصديق الذى لم أره منذ أعوام ، ولست على استعداد للقائه فى هذه اللحظات بينما أمى تمضى دامعة من هنا ولهناك ، وفى كل لحظة أتذكر ألف شىء لم أشتره بعد. أمى كانت تتصرف كأننى ذاهب إلى .... إلى قلب أفريقيا .. فى الواقع كان هذا صحيحًا. كنت ذاهبًا إلى مكان لم يذهب له أحد من قبل ، وليس هناك مصريون يحكون لى عن خبراتهم .. بالتأكيد لن أجد مجموعة من المصريين يسكنون فى شقة واحدة ويسمحون لى بالإقامة معهم ، ولم نجتمع ليلاً حول طبق كبير من الفول طهاه أحدنا ..

فى هذه الظروف جاء (رجائى) بلا موعد ، لكننى أدركت على الفور أنه مكتئب وأنه يبحث عن إجابة.

كنت مع (رجائى) طيلة مراهقتنا ، ثم فرقت بيننا الظروف الاقتصادية .. صار هو قادرًا على دخول الجامعة الأمريكية بالقاهرة بمصاريفها الباهظة ، أما أنا فدخلت كلية الطب .. تأخر عنى لفترة لا بأس بها لأنه أراد أن يعيش حياته ويرى كل شىء .. وبالطبع ظللنا نحاول التواصل بضمائر مخلصة لفترة ، ومع الوقت تجف العلاقة ولا يذكر أحدنا الآخر أبدًا ..

كان (رجائى) وسيمًا فارع الطول يوحى بدرجة معينة من الرقى .. لم يكن مثقفًا جدًّا لكنه كوّن بذكائه الخاص نظرة متكاملة للعالم ، وهذه النظرة كانت تدهشك أحيانًا إذ لا تصدق أن هذا الفتى لم يقرأ لهذا الفيلسوف أو ذاك من قبل ..

جلس (رجائى) فى غرفة الصالون وسط الحقائب والقمصان المطوية والأكياس ..

قال لى فى حرج :

ـ « لم أعرف أنك مسافر .. لو عرفت هذا لترددت ألف مرة .. »

ـ « لا عليك .. لا عليك .. أرجو أن تأخذ راحتك .. »

بينما صوت أمى يصل من خارج الغرفة :

ـ « الناس لم تعد تملك دمًا !.. يزورك فى هذا الوقت وأنت مشغول ! »

لسبب ما خمنت هى أنه لم يأت ليسلم علىّ . لهذا لم تقدم له كوبًا من الماء .

فضل التظاهر بأنه لم يسمع ما يقال وقال وهو يبلل شفته السفلى بلسانه :

ـ « علاء .. أنا بحاجة لطبيب .. طبيب أثق فيه .. لهذا فكرت فيك قبل أى واحد آخر .. »

★ ★ ★

اسمها (جلوريا) ..

بريطانية ..

طالبة تدرس معه الاقتصاد فى ذات الفصل الدراسى النصفى semester فى الجامعة الأمريكية . هما sophomore أى طالبان فى السنة الثانية كما يحب الطلبة هناك أن يقولوا عن أنفسهم . كانت حسناء أو على الأقل تناسب مقاييسه شبه الغربية عن الأنثى ، فهى لم تكن تساوى بصلة بالمقاييس المصرية ..

كانت تدرس وتقيم لبعض شئونها فى القاهرة ، وكانت تكتب لبعض الصحف الصادرة بالإنجليزية .. ظريفة جدًّا عملية جدًّا ..

مع الوقت صارا متلازمين أكثر الوقت فى الجامعة ، وفى كل يوم ساعة الغداء كانا يجلسان فى مطعم الوجبات الجاهزة إياه فى ميدان التحرير(*) يتبادلان الحوار ، وقد فطن فى دهشة إلى أنه يمضى أيامًا لا يستعمل فيها العربية تقريبًا لأن معظم كلامه معها ..

(*) تذكر أننا نتحدث عن أواخر الثمانينيات من القرن الماضى .

فى أيام العطلة كان يأخذها إلى الهرم أو القلعة ويريهـا كـل تفاصيل بلاده التى يصعب أن تراها ، حتى تدخين الشيـشة فـى الحسين وحتى التهام لحم الرأس ..

وعندما جاء الصيف قالت له إنهـا ستعود إلى إنجلترا لقضاء العطلة ، وطلبت منه أن يلحق بها هناك .. سوف يرى عالمهـا كما رأت هى عالمه ..

كان (رجائى) فى غير حاجة إلى دعوة .. لقد صارت جزءًا مهمًا من كيانه لا يتخيل عطلة من دونها ..

اسمها (جلوريا) ...

زميلته فى الدراسة وجزء مهم من حياته .. بل هى اليوم كل شىء ..

★ ★ ★

قال لى (رجائى) وهو يفك ياقة قميصه :

ـ « ما رأيك فى هذا ؟ »

هل جاء يطلب علاجًا للتينيا منى أنا فى هذا الوقت بالـذات ؟. يبدو لى أن الأصدقاء مزعجون فعلاً ويضعون عليك أعباء نفسية لا نهاية لها ..

كان قد وقف بفانلته الداخلية بعد ما وارب باب الغرفة ..

على الفور لاحظت هذا الالتهاب الجلدى على عنقه وكتفيه .. هذا المنظر يبدو لى مألوفًا نوعًا ..

أمسك بيدى وجعلها تتحسس عنقه ..

هنا شعرت بتلك العقد اللمفاوية تنزلق تحت أناملى .. حبـات فول صغيرة متماسكة لا شك فيها ، ويبدو أنها تؤلمه كذلك ..

رحت أضغط عليها وأحاول تحديد موضعها .. هناك شـىء .. شىء خطير على الأرجح لأن عدد الغدد وتوزيعها مريب ..

رفعت ذراعه ودسست أناملى تحت إبطه فشعرت بتلك العقد .. لو كانت العقد فى العنق مريبة فالعقد تحت الإبطين مريبة جدًا ..

قلت لاهثًا :

ـ « أنت .. منذ متى وجدت هذه العقد ؟ »

تحسس عنقه وقال وهو يلبس قميصه :

ـ « منذ أسبوعين .. سبقها ارتفـاع فـى درجـة حرارتـى واحتقان فى حلقى .. لكن هذه الأعراض زالت سريعًا .. »

وجلس على الأريكة وسألنى فى نوع من التوتر :

ـ « ما السبب فى رأيك ؟ »

قلت صادقًا :

ـ « الأسباب كثيرة .. بعضها مطمئن وبعـضها مخيـف .. لا يوجد طبيب يقدر على إعطـاء إجابة ما لم يجـر لك بعـض اختبارات الدم ، أو يأخذ عقدة لمفاوية من هذه العقد ليفحـصها تحت المجهر .. »

هذه المتلازمة شهيرة على كل حال فى عالم الطب .. التهـاب حلق وسخونة وعقد لمفاوية .. متلازمة زيادة الخلايا وحيدة النواة

Mononucleosis .. التوكسوبلازما .. حمى الغدد .. الفيروس المضخم للخلايا .. و...

والإيدز طبعًا ....

نظر لى بعينيه الصافيتين وقال بلهجة هادئة :

ـ « والإيدز .. أنت تخشى أن تقولها .. أليس كذلك ؟ »

ـ 2 ـ

عائدان من المرقص والساعة تجاوزت الواحــدة بعد منتصف الليل ..

هى ثملة تمامًا أما هو فقد جرب كأسًا فشعر بدوار وخفة بلا شك . ومن بعيد فى ظلام لندن البارد يرى صفوف الشبان الثملين الذين ينتقلون مــن حانة لأخــرى ليـلة السبت .. يترنحــون ويغنون بأصوات نشاز .. طريقتهم الوحيدة للمرح وسط غابة الحـضارة الباردة هى أن يسكروا فى هذه الليلة .

تتعلق جلوريا بذراعه .. وتقول له :

ـ « لابد من أن تجتاز الخطوة التى تفصل عالمك عن عالمنا .. فارق الحضارة وفارق الثقافة والتفكير .. يجب أن تحطم أسوار التابو .. »

لم يفهم ما تقول .. لقد لحق بها فى لندن بعد شــهرين مــن رحيلها. هى أرسلت له ثمن التذكرة لأنها كانت تحبه حقًا ..لكنه منذ ذهب هناك وهى تكلمه عن عبور الفجوة بين الحضارتين ..

ـ « لنذهب عندك .. »

ـ « بل أبى وأمى فى البيت .. لنذهب عندك أنت .. »

كان ثملاً .. بالفعل لا يعرف ما يقول أو ما يفعل .. وخطر له أن الفتاة الثملة ستكون بالتأكيد فى مأزق خطير لأنها لن تستطيع أبدًا أن تقول لا .. يجب منع هذا الاختراع المرعب المدعو بالخمر . يجب منعه بأى ثمن ..

ـ « لنذهب عندى إذن .. »

ويتعلق بذراعها حتى لا يسقط أرضًا .. ويمر بهــم الـشباب السكارى فيشتمونه بلهجة الكوكنى مـستحيلة الفهــم .. كـأنهم يتكلمون النرويجية ..

ـ « ماذا يقولون .. لا أفهم حرفًا .. »

ـ « تخيل أنهم يطرون وسامتك .. هذا يريحك .. »

وانفجرت تضحك فانفجر يضحك كذلك ..

★ ★ ★

أخرج (رجائى) من جيبه ورقة مطوية وناولها لى .. فتحتها فقرأت بخط واضح : اختبار إليزا لفيروس HIV إيجابى ..

شعرت بشعر رأسى ينتصب .. كان هذا أول مريض بفيروس فقدان المناعة المكتسب أقابله فى حياتى قبل أن تصير هذه عادة يومية فى وحدة سافاري. كنا فى بداية معرفة العالم لهذا الوباء فلا نعرف عنه إلا القليل ، لكن من الواضح أنه أجرى الاختبار فى الخارج ..

ابتلعت ريقى .. وبرغمى شعرت بأننى أتراجع خطوات للـوراء ، وقلت :

ـ « اسـمع .. نحـن لا نعرف الكثير عن الإيدز .. لكن يجب أن أؤكد لك أن هذا الاختبار غير كاف وأننـا بحاجـة لاختبار تأكيدى .. »

ـ « هذا ما قالوه لى .. وقد أرسلت العينة وعرفت هاتفيًا أنها موجبة .. »

كان معنى هذا خطيرًا .. هو الآن مـصاب بعـدوى فيـروس فقدان المناعة .. سـوف تستمر العـدوى بضعة أعوام إلـى أن

تنخفض الخلايا المسماة CD4 فى دمه إلى درجة كبيرة ، بعدها يبـدأ رسميًّا مرض الإيدز ، حيث يكفى أن تسعل فى وجه المريض ليصاب بالتهاب رئوى قاتل .. يكفى أن يأكل تفاحة غير مغسولة كى يفتك به الإسـهال .. فى كل يـوم مفاجأة جديدة لعينـة .. هزال .. حمى .. إسـهال .. النهاية لن تتأخر أكثر من عامين ..

كنت أتراجع بعيدًا عنه برغم معرفتى أن هذا غيـر علمـى .. قلت له :

ـ « هل نقل لك أحدهم دمًا فاسدًا ؟ »

نظر للسجادة كأنه يتحاشى نظراتى وقال :

ـ « بل هو السبب الآخر .. لقد كنت فى إنجلترا .. وهناك .. لم أتصرف بالحكمة اللازمة .. »

ـ « وهى ؟ »

ـ « كانت تعيش حياة من التحرر التام .. صـارحتنى بـذلك وقالت إن علىّ أن أفهـم وأن أتخلـى عـن تفكيـرى الـذكرى الشرقي ، فبعض المغامرات لا يعنى أنها لا تحبنى »

ـ « وهل تعرف أنها مريضة ؟ »

ـ « لا .. إن المرض يتصرف بطريقة غريبة .. أنت تعـرف هذا .. من يصبك بالعدوى قد يعيش بعدك وقد لا يتدهور .. أنت أدرى بهذه الأمور منى .. »

ـ « ولماذا لم تخبرها ؟ »

ـ « لا أدرى .. ربما هو الانتقام .. »

ـ « هذه أنانية لا شك فيها .. سـوف تنقـل هـى المـرض لعشرات آخرين ... يجب أن تخبرها .. »

لم أكن ذا مزاج رائق لنصح أحد بشىء .. لن ألقـى دروسًـا أخلاقية وهو على الأرجح ليس مستعدًا لسماعها .. لقد تـصرف بإرادته وعليه أن يتحمل ..

فى ذلك الوقـت لـم تكـن ترسـانة العـلاج تحـوى غيـر (الزيدوفيودين AZT) وبالطبع لم يكن علاجًا قـدر مـا هـو تطويل لعملية الاحتضار .

لكن لماذا جاء وهو يعرف تشخيص مرضه وكل شىء عنه ؟..

سألته وأنا أجلس للمرة الأولى منذ نصف ساعة ، واضع ساقًا على ساق مما جعل الخف يسقط لينزلق تحت الأريكة :

ـ « إذن ماذا تريد منى ؟.. أنا آسف لغلظتى لكن مـاذا فـى يدى أن أفعل ؟.. أعتقـد أن عليـك أن تقصـد وحـدة النمـرو NAMRU أو مستشفى حميات العباسية .. »

قال وهو يجفف دمعة سالت على خده :

ـ « المشكلة هى إننى قبل أن أعرف بمرضي ، تصرفت فـى لحظة شهامة ومنحـت دمى لمريضـة تنزف فى المستشفى .. كانوا بحاجة لدم .. فصيلة (بى سالب) وهى نـادرة فعـلاً ... كنت أنا هنـاك وحسبت الأقدار ساقتنى لإنقاذها . لـم يكونـوا يجرون اختبارات الإيدز فى ذلك الوقت .. هكذا منحت المريـضة نصف لتر من الدم الملوث .. »

من جديد نهضت وقد شعرت بخطورة الموقف .. إذن هنـاك مسكينة ما تحمل فيروس الإيدز فى عروقها ولا تعرف هذا ..

ـ « من هى ؟ »

— « تلك هى المسألة على رأى شكسبير .. لم أرها ولم أعرف اسمها لكنى أذكر اليوم جيدًا لأن أبى كان فى المستشفى يجرى جراحة بسيطة .. »

— « إذن هى لم توجه لك الشكر كما يحدث فى السينما .. »

— « لا .. هذا يحدث فى السينما .. »

كنت أفكر فى الإمكانات الثرية لهذا الموقف .. سوف تنقل المرض لزوجها ولربما تتبرع بالدم .. ربما تستعمل ذات المحقن مع صديقة لها .. ما أكثر احتمالات الخطر الذى يسببه مريض لا يعرف أنه كذلك ..

قلت له وأنا أفرك عينى :

— « ربما أمكن العثور عليها وإن كنت أشك فى هذا .. المستشفيات عندنا لا تحتفظ بسجلات دقيقة ، دعك من أننى سوف أكون فى غرب إفريقيا بعد يومين .. لا وقت لدى للبحث .. نصيحتى لك هى أن تبحث عن العلاج وأن تطلب رأى صديق لى متخصص فى مشتقات الدم .. »

ودونت له الاسم ورقم الهاتف على بطاقة صغيرة .. ثم قلت :

— « أكرر أسفى .. لكنك جئت تطلب رأيى فى أسوأ وقت ممكن .. عدنى أن تكتب لى وتخبرنى بما تم .. »

كانت هذه هى الجملة الأخيرة لأنه نهض وتمنى لى حظًا سعيدًا ، وتعانقنا برغم عدم ترحيبى بذلك .. أعرف جيدًا أنه بوسعك أن تعانق مريض الايدز لكنها الفوبيا غير المنطقية .. الفوبيا التى تجعلك ترى عنكبوتًا فى التليفزيون فتبدأ فى حك مؤخرة عنقك ..

موقف مؤسف ، ولو سارت الأمور كما أتوقع لها فلن يكون موجودًا عندما أعود .. لكنى لسبب واضح لا أستطيع أن أشفق عليه أكثر من اللازم . أنا مشفق على البائسة التى تلقت وحدة من دمه .. هذه لم تختر شيئًا ولم ترد شيئًا .. وماذا لو كانت متزوجة وأنجبت وهى لا تعرف ؟.. وماذا لو كانت تتمتع بالشهامة وتبرعت بدمها مرة أو مرتين ؟

علىّ أن أنسى غدًا لأننى ذاهب إلى عالم آخر بمشاكل أخرى وهموم أخرى..

* * *

كانت (جلوريا) هناك فى الجامعة مع بداية الفصل الدراسـى الجديد ، وقد حيته بهزة رأس وهى تتساءل فى سرها عن سبب جفائه معها منذ عاد من إنجلترا .. بالذات فى الأسابيع الأخيـرة .. كأن رحلته لبلادها باعدت بينهما ولم تقرب ..

هل هو الملل ؟.. هل لم يعد يرغب فى شىء منها ؟

سيكون أحمق لو اعتقد أنها ستبكى وتنهـار وتزحـف علـى ركبتيها تطالبه بالعودة ..

بخطـوات ثابتة اتجـه إلى مكتب مدير الجامعة ، وكان يعرف أن مهمته صـعبة عسيرة .. يجـب أن يعرفـوا وبعد هذا فليكن ما يكون ..

لن يصدقه الرجل ، لكن التحاليل معه ..

هناك وقف على الباب للحظات .. ثم شعر بأنه غير قادر على عمل شىء .. غير قادر على الكلام .

هكذا كور المظروف الذى يحوى الاختبار فى يده وتراجع ...

* * *

كانت سلوى الصيدلية الشابة فى المستـشفى تجـرى جـردًا لمخزون الأدوية بالصيدلية ، عندما سمعت هرجًا ومرجًا فى قسم الطوارئ المجاور لها ..

كانت هناك محفة ، وكان هناك أطباء يركضون هنا وهناك .. ممرضات متوترات عاليات الصوت ..

سألت زميلتها العاملة بالمستشفى عما هنالك ، فقالت لها وهى تقف على الباب :

ـ « لا أعرف .. هذا قسم طوارئ على كل حال . لن تأتى هنا حالة مصابة بالزكام كما تعرفين .. »

وكانت هناك ممرضـة تخـف السير فى الممـر ، وحـذاؤها المطاطى يضرب الأرض ضربًا ، فسألتها الصيدلية :

ـ « ماذا هنالك ؟ »

ـ « شاب قطع شرايين معصميه .. »

ـ « ولماذا ؟ »

ـ « أرجو أن تسأليه أنت يا دكتورة ! »

ومن بعيد سمعنا من يصيح فى عصبية :

ـ « الفصيلة بى سالب .. لن نجدها أبدًا ! »

هنا هتفت سلوى وهى تكشف عن معصمها :

ـ « هذه فصيلتى أنا ! »

صحيح أن الحادث وقع منذ أشهر معدودات ، وصحيح أنها لم تستعد لياقتها بعد ، لكن يمكنها أن تتحمل . كانت هى هناك بـين الحياة والموت فى المستشفى والكل يبحث لهـا عـن فـصيلتها النادرة (بى سالب) عندما ظهر ذلك الشاب الذى لم تر وجهــه قط ، وتبرع لها بوحدة كاملة. الآن هى تعرف قيمة الدم وقيمــة أن تجد من يمنحه لك عندما تحتاج له .

ومن مكان ما برز طبيب شاب متحمس كأنه سمع ما تقــول ، وهتف بها :

ـ « هل من أمراض مزمنة ؟ »

قالت كاذبة :

ـ « لا .. لقد أجريت اختبارات فحص الدم منذ أشهر وكانــت سلبية .. »

لو أخبرته بأمر الحادث والجراحة لتردد ألـف مـرة .. لـو أخبرته بأن حلقها يؤلمها منذ فترة لخاف ..

قال وهو يشدها من يدها ليسلمها للممرضة :

ـ « أنت فرصة جاءت لنا من السماء .. لا وقت لإجراء هذه الاختبارات .. إنه يفقد حياته .. »

فى ذلك العصر لم تكن الاختبارات بهذه الأهمية ، وكان التهاب الكبد سى والإيدز كائنين مستجدين غامضين على عالم الطب .. كانوا يكتفون بتحديد الفصيلة واستبعاد التهاب الكبد (ب) ..

وعبر الردهة رأت المحفة يدفعها ممرضان .. عليها تمدد ذلك الشاب الوسيم الذى ضمدوا ساعديه . مغمض العينين لا يعـرف ما يدور . شاحبًا تمامًا كهذه الورقة ..

قال الطبيب وهو يدون شيئًا فى الدفتر الذى يحمله :

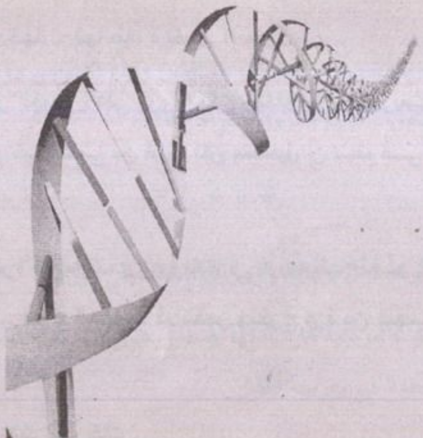
ـ « طالب فى الجامعة الأمريكية .. لا نعرف لماذا فعل ذلـك لكن ليس الوقت وقت الاستجواب .. المهم أنك فرصته الوحيـدة والأخيرة ... هيا بنا ! »

أنت قرأت القصة .. كانت هناك ثلاث قواعد تم التلميح لها فى السياق . وبعبارة أقرب للفهم كان هنـــاك تلمـــيح لثلاثة حروف تتشكل من اللبنـــات GCAU .. قد تكـــون هذه الحروف غير متشابهة مثل GUA أو تضم حـــرفين متشابهين مثـــل GGA أو تكون الحروف الثلاثة متشابهة مثل AAA ..

هل عرفت الحروف الثلاثة ؟.. هذا هو ثانى جزء من الشفرة الوراثية للفيروس .. دوّنه بعناية على يمين الحروف السابقة ، وانتقل للتتابع الثالث ....

تلميح : كل الجامعات تسمى نفسها بالحروف الأولى اختصاراً .. فهل هذا هو الحال هنا ؟

تتابع القواعد الثالث



غـريب الأطوار

– 1 –

صرخ أحد الأمريكيين فى الشارع وقد غطى الغبار كتفيه :

– « إنها .. إنها طائرة أخرى !! »

ونظر الجميع لأعلى ليروا المشهد الكابوسى الذى ربما رأوه فى فيلم خيال علمى من قبل ، لكن مستحيل أن يتم فى عالم الواقع ..

الطائرة الثانية تنحدر .. وبإصرار غريب تتجه نحو البرج الثانى .. البرج السليم .. ثم تنفجر وتخرج كرة من اللهيب من الجانب الآخر ..

تصاعدت الصرخات ..

هل هى نهاية العالم ؟

وتهاوت شقراء على الأرض لأن ساقيها عجزتا عن حملها وراحت تنشج بلا توقف ..

الحادى عشر من سبتمبر .. اليوم الأخطر فى تاريخ أمريكا منذ 7 ديسمبر عام 1941 عندما انقض اليابانيون على بيرل هاربور ..

لقد تغير كل شىء .. نحن لسنا آمنين وراء الأطلسى ووراء المحيط الهادى .. إنهم قادرون على بلوغنا ..

* * *

صديقة برنادت الأمريكية (روزلين) كانت فى حيرة .

(روزلين) أمريكية فارعة لها جسد رياضى وشعر أشقر طويل .. معلمة فى مدرسة أطفال ..

(روزلين) كانت فى سوريا لفترة ، وهناك عرفت هذا المهندس الشاب (منذر) .. كان يملك الصفات التى لابد أن تعجب بها فتاة أمريكية .. باختصار هو يختلف عنها وعن قومها فى كل شىء بدءًا بالأفكار وانتهاء بلون البشرة ..

كان ظريفًا فعلاً وقد رتب لها جولة رائعة رأت فيها معظم معالم سوريا ، وأخذها فى جولة فى لبنان كذلك ..

عندما عادت للولايات كانت قصة الحب قد بدأت .. قصة الحب نمت عبر الخطابات المتبادلة ، ثم جاء اليوم الذى حصل فيه على تأشيرة للولايات . هناك فى نيوجيرسى التقيا من جديد وعرفا أنهما لن يتخليا عن بعضهما أبدًا .

ـ « سوف أتزوجه .. »

هكذا كتبت لبرنادت وأردفت :

ـ « إن لك تجربة جميلة ناجحة مع زوجك المصرى ، وأشعر أنك قادرة على أن توجهى لى النصح .. »

كتبت لها برنادت بلطف بالغ :

ـ « لا يمكن القياس على علاء ، فلو أنك لقمت تاريخ حياته وبياناته لجهاز كمبيوتر لاستنتج أنه مجنون .. أنا وحدى أفهم

علاء وقد أحببته كثيرًا ، لكن لو كان (منذر) يشبهه فأنت فى ورطة حقيقية .. »

لم تشعر الفتاة براحة لدى قراءتها هذه الكلمات .. على الأقل علاء حالة خاصة جدًا وهذا مريح. من الممكن أن يكون منذر عاقلاً ..

وجد منذر عملاً فى شركة إنشاءات بالولايات المتحدة ، وتزوجا فى حفل عائلى بهيج ، ثم بدأت الحياة تتحرك ..

الآن بدأت القصة المملة المعروفة التى تتكرر مع الزوجة الغربية والزوج الشرقى .. هو يغار .. هو غير راض عن ثيابها .. غير راض عن أصدقائها .. غير راض عن استقلالها ..

هى غير راضية عن عدم رضاه .. غير راضية عن عدم فهمه لطريقة الحياة الأمريكية .. وبدأ يتكلم عن تفكيره الجدى فى أن يعودوا لسوريا بعد الإنجاب ليتربى أولاده هناك بالطريقة العربية .

هو مثلاً لم يستطع قط فهم طريقة الأمريكيين فى السؤال عن الأسرة .. تقابل زميلك فى العمل فيقول لك :

ـ « كيف حال زوجتك ؟ »

يوشك على ضربه وهو يقول :

ـ « وما شأنك أنت يا وقح ؟ »

هكذا تبدأ المشاجرات وتستمر ثم تنتهى .. ثم تبدأ من جديد ..

كتبت لبرنادت تسألها فقالت هذه :

ـ « الزواج رقصة تانجو .. عندما يتقدم راقص للأمام يجب أن يتراجع زميله للخلف .. هذه هى القاعدة . لو أصر الاثنان على التقدم فلسوف يتعثران .. أعتقد أن عليك أن تتنازلى قليلاً .. »

قررت أن تفعل ذلك ..

أعدت العشاء فى تلك الليلة ، ودعت بعض الأصدقاء لبيتهما ..

كان (منذر) مرحًا وهو يخرج الديك الرومى من الفرن .. يعد الأطباق .. يضبط التليفزيون ، ثم دق جرس الباب ودخلت شيريل وزوجها ..

ـ « كيف الحال ؟ »

زوج شيريل صافح (منذر) ثم انحنى ليطبع قبلة على خد (روزلين) ..

كانت هذه نهاية الأمسية لأن منذر أرغى وأزبد ، وجر الزوج من ياقة سترته ليلقى به فى الخارج ، وهو يردد :

ـ « عندما تزور بيتًا ذا ثقافة مختلفة فعليك أن تحترم تقاليده ! »

هرع الزوجان فارين وفسد كل شىء طبعًا .. وعندما صارا وحدهما صارحته بأنه فظ غريب الأطوار وأنها لن تفهمه أبدًا .. قال لها إن الطريقة الشرقية هى أن تتوارى الزوجات أو يصافح الضيف الزوجة أما القبلات على الخدين فللرجال .. لن يفهم أبدًا

أن يقبل رجل زوجته ويصافحه هو .. هؤلاء الناس لا يتمتعون بأية نخوة كما هو واضح ..

ـ « كل شىء عندكم مقلوب وغريب .. »

يبدو أن قطيعة قوية نشأت بينهما فى ذلك الوقت واستمرت .. هناك درجة معينة من التصدع لا يجدى فيها الصلح ولا التقارب مهما حاول الزوجان . كانا يقتربان جدًا جدًا لكنهما دائمًا على جانبى الصدع .. لا يعبر أحدهما للآخر ..

كانت هـذه هى الفتـرة التى بدأ (منـذر) فيها يدافـع عن كينونته وخصوصيته عـن طـريق المزيد مـن التدين . صار مواظبًا على الصلاة واعتـاد التردد على المسـجد القـريب فى البلدة ..

قدرت أنه فعلاً يريد أن يشعر بالانتماء أكثر .. إن الدين مـن مكونات الوطن المهمة ..

هذا شىء تفهمه على الأقل ..

ما لم تستطع فهمه هو فترات غيابه الطويلة ..

كان يسافر خارج الولاية كثيرًا .. ويقيم بضعة أيام ثم يعـود قائلاً إنها ظروف العمل ..

هل هناك امرأة فى القصة ؟.. لا تعتقد .. المرأة تشعر بهـذه الأمور بحساسية بالغة ..

فيما بعد عرفت السبب وتمنت لو كان الأمر يتعلق بامرأة ..

– 2 –

جهاز الكمبيوتر الخاص بزوجها والـذى يستعمله فى تصميم المشاريع الهندسية كان هناك .. ولم يخطر لها من قبل أن تجول بين ملفاته ، ثم خطر لها أن تجرب ذلك لسبب ما .

راحت تجوب الفهارس .. معظم الموجود ذو محتوى دينى .. هناك نسخة كاملة من القرآن مخصصة للغربيين مـع ترجمـة إنجليزية ، ثم وجدت فهرسًا تم تشفيره بعناية فلا يمكن فتحه إلا بكلمة سر.

لم تعرف إلام يرمز الاسم المكون من ثلاثة حروف .. إن حياة الأمريكيين مليئة بالاختصار على كل حال ، لدرجـة أن تـسمى شخصًا باسم W أو G .. راحت تخمن عدة مرات فلم تستطع ، على أنها دخلت شبكة الإنترنت لتبحث عن هذا الاختصار ..

كانت هناك خيارات كثيرة ، لكنها وجدت اختصارين مناسـبين (وكالة الطيران المدنى) أو (اتفاقية الهواء النقـى) ... مـن الممكن أن يكون الأخير بالذات لأن زوجها مهتم بموضوع التلـوث وكتب عنه بعض المقالات ...

راحت تبحث فى الأدراج على سبيل المزيـد مـن الفـضول ، فوجدت مظروفين مغلقين .. مظروفين عليهمـا ذات الحـروف الأولى ..

ما معنى هذا ؟.. لماذا يهتم بهذه المواضيع الغريبة ؟

لا جدوى طبعًا من محاولة فتح المظروفين لأنهما مغلقان جيدًا ، ولأنها لم تجرب قط موضوع فتح خطاب على البخار .. قد لا تستطيع غلقه ثانية وتكون كارثة بينما العلاقة متوترة أصلاً بما يكفى ..

هكذا نسيت الأمر وإن لم تنس أن زوجها غريب الأطوار فـى الفترة الأخيرة .. يبتعد عنها بلا توقف .. وقد كتبت هذا لبرنادت فى خطاب طويل ...

يبدو أن هذه الزيجة ستفشل كما هى عادة الزيجـات هنـا .. على الفتاة عندما تتزوج أن تختار عريسًا يحمـل ذات الخلفيـة الثقافية ويفكر مثلها. اختلاف الثقافات هذا قد يقضى على زيجات كثيرة ، فلا شك أنه كان سيكون أسعد لو حملت زوجتـه اسـم (فاطمة) ، وهى كانت ستكون أسعد لو كـان زوجهـا يـدعى (هارى) ..

ماذا يعرفه منذر عن مباريات البيزبول وحفلات المدرسة الثانوية والتدريب على تشجيع المباريات ، وماذا يعرفه عن لنكولن ويوم الشاى وعيد الشكر والديمقراطيين والجمهوريين ، وماذا تعرفه هى عن الوالى العثمانى والمسجد الأموى ورمضان وخلافات الشيعة والسنة ؟

كان هذا هو العاشر من سبتمبر 2001 ..

زوجها خارج الولاية منذ أيام .. وهى اعتادت هذا على كل حال . كان يتصل يوميًا لكنها مكالمات رسمية يطمئن فيها فقط على أنها ما زالت حية :

ـ « هل أنت بخير ؟ »

ـ « ما زلت حية لو كنت تسأل عن هذا .. »

لا يعلق :

ـ « سوف يمتد العمل يومًا آخر .. أمامى عمل كبير هنا .. »

ـ « خذ راحتك .. »

عمل كبير big وليس كثيرًا .. لماذا ؟.. ساد الصمت بعض الوقت ثم قال :

ـ « أنا أحبك .. تذكرى هذا .. لو لم أعد أو حدث شىء فلتذكرى أننى أحبك .. »

ـ « هل لمسك شيطان الدراما بعصاه السحرية ؟ »

ـ « لا .. على الأرجح سأكون معك غدًا .. هناك احتمال طفيف جدًا ألا أستطيع .. لعل الله لم يكتبها لى بعد .. »

ـ « يكتبها ؟.. عم تتكلم ؟ »

لكنه كان قد وضع السماعة .....

وفى اليوم التالى كانت فى الفراش تراقب شاشة التليفزيون ، بعينين لا تريان ..

التاسعة صباحًا .. لن تذهب للعمل اليوم الثلاثاء .. تشعر بأن عظامها مهشمة .. على الأرجح ستنام حتى الظهر ثم تخرج لشراء طعام صينى .. و ...

الطائرة الأولى تقتحم البرج ...

مركز التجارة .. نيويورك . القريبة جدًا من نيوجيرسى ..

ما هذا ؟.. هل هو كابوس ؟

الطائرة الثانية تقتحم البرج ...

واتضح أنها لن تذهب لأى مكان .

جلست فى الفراش وراحت ترتجف .. تعض على أناملها .. تبكى ..

الأخبار تنهمر على الشاشة .. طائرتان .. طائرة ثالثة اقتحمت البنتاجون وأخرى سقطت فى طريقها لوجهة مجهولة ...

من فعل هذا ؟ ... من ... ؟

* * *

عند الظهر عاد (منذر) ...

كان ينتقل بالسيارة طبعًا فلو كان عمله يقتضى السفر بالطائرة لما استطاع العودة ، لأن كل المطارات أغلقت ..أمريكا تحت الهجوم .. أمريكا فى حالة حرب ..

كان يبدو منهكًا .. ارتمت بين ذراعيه باكية فاحتضنها وراح يلهث من الإرهاق والتوتر العصبى ..

ـ « هل رأيت ما حدث ؟ »

هز رأسه .. ثم قال :

ـ « أمريكا تمادت فى غيها .. كان لابد أن تتلقى العقاب من جهة ما .. »

نظرت له فى دهشة :

ـ « إذن أنت سعيد بما حدث ؟ »

ـ « لست سعيدًا لموت هؤلاء الأبرياء .. لكن كان على أمريكا أن تدرك أن هناك عقابًا سماويًا .. »

ثم تركها ودخل إلى غرفة النوم ليبدل ثيابه .. جلست هى وحدها تفكر فى كلماته ..

التلفزيون يعلن القائمة الأولى من المتهمين .. عرب .. معظمهم من المملكة العربية السعودية ومصر . لم تسأل نفسها عن الطريقة التى عرفوا بها هذا بهذه السرعة ، والواقع أن أى أمريكى لم يسأل نفسه ..

عرب ....

عرب كانوا يتدربون على الطيران المدنى فى المدارس المحلية ، وهم الذين قادوا الطائرة ليقتحموا البرجين ..

لحظة .. ما هى الحروف الأولى التى وجدتها على ذلك الملف وفى تلك المظاريف ؟.. الحروف الأولى من (وكالة الطيران المدنى) ... أين يذهب زوجها فى تلك العطلات ؟.. هل للتدريب على الطيران ؟

« لعل الله لم يكتبها لى بعد » .. يكتب ماذا ؟.. مع توقعات بأنه لن يعود .. زيادة التدين وكل هذا الرفض للمجتمع الأمريكى .. « أمامى عمل كبير » ... ما معنى هذا ؟.. أم أن الأمر واضح ؟..

كانت تشعر بالذعر .. تشعر بأنها لا تريد أن تراه ..

« أمريكا تمادت فى غيها .. كان لابد أن تتلقى العقاب من جهة ما .. »

« أمريكا تمادت فى غيها .. كان لابد أن تتلقى العقاب من جهة ما .. »

عاد من غرفة النوم ووضع يده على كتفها فأجفلت ..

ـ « ما بك ؟ »

ـ « لا شىء .. لقد أتلف المشهد أعصابى .. »

ـ « معك حق .. »

وجلس أمام التلفزيون يتابع الأخبار طيلة الليل فى نهم ...

* * *

قال لها رجل مكتب التحريات المركزى FBI وهو يضع القرص المدمج فى جهاز الكمبيوتر :

ـ « سوف نفتحه .. لا مشكلة لدينا .. »

وتأمل اسم الملف الذى قامت هى بنسخه ثم قال باسمًا :

ـ « كلمة فى سرك .. لا أعتقد أنه ملف مهم .. لا أحد يضع ملفات خطرة كهذه على جهاز الحاسب الشخصى الخاص به ، ويطلق عليها اسمًا موحيًا كهذا .. »

ثم حك رأسه ورشف رشفة من القهوة وقال :

ـ « أين زوجك ؟ »

ـ « هو فى العمل الآن .. لم يذهب للمكتب الهندسى منذ أسبوع .. »

ــ « سوف نراقبه بعناية .. والآن أريد المظروف لو سمحت .. »

ناولته المظروفين بيد ترتجف ، وهى تردد :

ــ « لم أرد أن تصل الأمور لهذا الحد .. لكنه يتغيـر .. أنـا متأكدة من أنه يتغير .. أعتقد أنه كان سيحلق بواحدة من تلـك الطائرات ثم تغيرت الخطة .. »

ــ « سنرى .. »

وناول المظروفين لفتاة وأمرها أن تفتحهما بطريقـة تـسمح بإعادة الغلق .. أعطاها القرص كذلك .. قدم لها كـذلك وريقـة صغيرة للتحرى عما بها ..

ومضى الوقت وهى تنتظر .. جلب لها وجبة خفيفة ، ثم راح يتبادل معها حديثًا مرحًا عن مباريات البيزبول .. لطـف رجـال المخابرات المفتعل الشهير كأن الولايات المتحـدة لـم تتعـرض لأعنف ضربة فى تاريخها منذ أسبوع ..

بعد ساعتين عادت الفتاة حاملة مجموعة من الأوراق .. راح الرجل يطالعها .. ويبدو أنه تلقى الملف بعد فتحه عبر النهايـة الطرفية للشبكة التى يجلس أمامها ، فراح ينظر للشاشة ، وفـى النهاية قال :

ــ « أنت مواطنة أمريكية مخلصة للوطن .. يجب أن أطمئنك أن زوجك لا دخل له بما حدث. هذه ملفات بريئة فعلاً بالنسبة لنـا .... لكن ليس لك .. »

وعلى الشاشة رأت صورة فتاة محجبة جميلة . عدة صور فى الواقع .. كان زوجها معها فى متنزه ما ينعمان بالشمس أو يصطادان السمك من بركة .. كما بدا أن الأوراق هى خطابات بعضها كتب بالعربية وبعضها بالإنجليزية ...

قال الرجل وهو يقلب الأوراق :

ــ « (كلير أحمد أمين) .. أب مصرى وأم أمريكيـة .. كـل بياناتها هنا لأنها زميلته فى المكتب .. أعتقد أن زوجك كان يريد الطلاق والزواج منها ، لأنه يشعر أنها أقرب لتقاليده وعالمه .. واضح أنه كان يتردد أيامًا على مزرعة أبيها .. تكرر هذا كثيرًا .. أعتقد أنه كان ينوى أن يصارحك فى الأيام القادمة .. »

ثم أردف فى كياسة :

ــ « كلير أحمد أمين .. ذات الحروف الأولـى التـى جعلتـك تشكين فى (وكالة الطيران المدنى) .. هذا اسم فتـاة ولـيس اختصارًا لاسم هيئة .. »

نظرت للشاشة وشعرت برجفة ...

زوجها لم يركب طائرة ليقتحم البرجين .. هذا جميل فعلاً ..

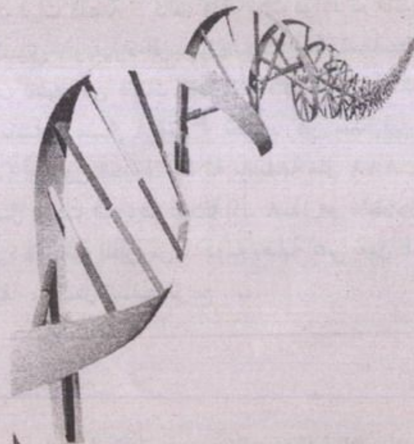
المشكلة أنه ركب طائرة واقتحم عالمها هى ..

بدأت تضحك .. تضحك ثم تبكى ... تضحك ثم تبكى ...

أنت قرأت القصة .. كانت هناك ثلاث قواعد تم التلميح لها فى السياق . وبعبارة أقرب للفهـم كان هـناك تلميح لثلاثة حروف تتشكل من اللبنات GCAU .. قد تكون هذه الحروف غير متشابهة مثـل GUA أو تضـم رفين متشابهين مثـل GGA أو تكون الحروف الثلاثة متشابهة مثل AAA ..
هـل عرفت الحروف الثلاثة ؟.. هـذا هو ثالث جزء من الشفرة الوراثية للفيروس .. دوّنه بعناية على يمين الحروف السابقة ، وانتقل للتتابع الرابع ....

تلميح : **الحروف الأولى من مصطلح** (**وكالة الطيران المدنى**) **أو** (**اتفاقية الهواء النقى**) **قد تكون هى الحل** .....

تتابع القواعد الرابع



العنصر الغامض

ـ 1 ـ

يومها ونحن نمشى فى شوارع (ياوندى) متشابكى اليدين ، قالت لى برنادت وهى تتجه إلى واجهة محل يبيع الحلى :

ـ « أنت لا تحب الذهب لهذا سأبتاع لك خاتمًا من فضة .. »

قلت لها إننى لا أبالى بالاثنين .. لا أفهم لماذا يجب أن يحـيط الخطيب أو المتزوج إصبعه بقيد ما ، لكنها كانت مصرة لأن هذا يبدو رومانسيًا ...

هكذا عادت لى بهـذا الخـاتم الفضى ، وقـد وضـعته حول إصبعى ونسيته .. لا أنزعه إلا وقـت الجراحة ضـمن طقـوس التعقيم ..

★ ★ ★

فى الآونة الأخيـرة كانت هنـاك زيـادة فى حالات الملاريـا المخية فى شـمال البـلاد ، وبالذات لدى الأطفـال .. كان هذا

سـلوكًا وبائيًا غيـر معتـاد ، فالملاريا هنـا مسـتقرة اتخذت وضع الاتزان الوبائى .. لا تزيد ولا تنقص .. ومناعة الأهـالى عاليـة ..

طلب (بارتلييه) عددًا من الأطباء بالوحدة وقال لهم :

ـ « سوف نرسل حملة إلى (ماروا Maroua) قرب الحدود مع نيجيريا .. سوف تتضمن الحملة اثنين من أطبـاء الأطفـال واثنين من أطباء الوبائيات .. »

ثم نظر عبر نظارته السميكة إلى برنادت وقال :

ـ « د. (عبد العظيم) .. ستكونين ضمن الحملة طبعًا .. أنا أثق برأيك .. »

هزت برنادت رأسها موافقة ..

كان هذا هو الواجب وهو عملنا هنا ، لكنهـا مـن اللحظـات التى أتوجس خيفة من قدومها .. دائمًا أنـا معهـا أو أذهب أنا

وتبقى هى .. لا أحب أن تذهب وحدها لأبدأ فى القلـق ، بـدءًا بالتفكير فى سقوط الطائرة وانتهاء بانقلاب الـسيارة ، وخطـف المتمردين على الحدود لها ، والإصابة بحالة صعبة من الملاريا المخية .. إلخ ...

لكن بالفعل ليس بوسعى الذهاب معهم ..

كانت تعد حقائبها ، فاتجهت نحوها وقربت جبهتى من جبهتها وقلت بصوت خافت :

ـ « هل تتعاطين أقراص الوقاية من الملاريـا بانتظـام ؟.. لا تقولى إنك نسيت .. »

ابتسمت وقالت :

ـ « لا تخف .. »

وكان هذا آخر شىء قالتـه وهـى ترحـل لتركـب طـائرة الهليوكوبتر الخاصة بالوحدة ، بينما عدت أنا إلى الدار وصممت على أن أغرق نفسى فى العمل حتى لا أشعر بغيابها ..

أحيانًا أمضى أيامًا معها لا نتكلم أو نتقابل نصف ساعة فى اليوم ، لكنى أعرف يقينًا أنها على أرضى .. قريبة .. الآن أنا أعرف (ماروا) هذه جيدًا .. منطقة خطرة فعلاً ...

لا شك فى أننى قلق .. صحيح أنهم يتصلون بالوحدة يوميًا لإبلاغ الأخبار أو تلقى المعلومات ، لكن كل شىء يمكن أن يحدث فى ثوان .. تلك البعوضة المتوحشة التى ستلدغها ليلاً وتحقن سبوروزويتات منيعة لا يقتلها شىء ..

هكذا قضيت يومين فى حالة قلق بالغ ..

كان (جيديون) يحتاج لى فى المشرحة من وقت لآخر ، ولم أكن أحب الذهاب هناك .. ليست المشرحة بأفضل مكان يقضى فيه زوج قلق وقته ، لكنى كنت أتعلم كثيرًا من خلال الفحص الباثولوجى .. أن ترى رئة فتك بها السرطان أو كلية تلاشت معالمها بسبب الالتهاب المزمن .. هذه أشياء ثمينة ، كما أن الرجل كان خبيرًا فى علم الأنسجة ..

ـ « كيف حال زوجتك ؟ »

ـ « يقولون إنها بخير ... »

ـ « فلتكن حذرة .. إن تلك المنطقة ليست آمنة جدًا .. »

كان الغيظ ينتابنى .. جميل جدًا أن يخبرنى أحد بأننى على حق فى مخاوفي ، والمشكلة الأخرى هى أن الرجل ليس ودودًا على الإطلاق كما يعرف القارئ ..

انتزاع العلم من هذا الرجل يشبه استخراج قطرات ماء من قطعة حجر صوان .. وكان يكلفنى بالكثير من العمل قبل أن يشرح لى شيئًا ..

فى النهاية كنت أخرج من عنده وأنا أرى دائرة مضيئة أمام بصرى حيثما ذهبت ، بسبب التركيز فى عدسة المجهر .. لكن لا أنكر أنه كان مفيدًا ..

* * *

فى المساء جلست أمام التليفزيون ، وأعددت لنفسى عـشاء من الشىء الوحيد الذى أجيد عمله : المكرونة ..

مكرونة كل ليلة .. ومكرونة عندما أجوع .. ومكرونة عندما لا أجد شيئًا آخر أفعله .. حتى أوشكت على أن أجيـد الإيطاليـة فعلاً ..

دخلت لأغسل يدى فى الحمام. هنا لاحظت أن الخـاتم الـذى ألبسه داكن اللون ..

ليس لون الفضة الجميل البراق المحبب للنفس ، لكنـه لـون داكن كئيب ..

فضة سوداء .. أعرف أنها ثمينة وتعتبر من الحلى الفاخرة ، لكنى شعرت بدهشة ..

هناك قطعة إسفنج خاصة بالأطباق لها سطح خشن لا بأس به ، لذا غمرتها فى سـائل تنظيف الصـحون ثم دعكت الخاتم مرتين أو ثلاث مرات وغسلته .. وبدا لى أنه تحسن نوعًا ..

سوف تغضب برنادت لو رأت ما حدث لخاتمها ..

فى الصباح نظرت للخاتم فلم يبد لى أفضل حالاً ..

هذا غريب فعلاً ...

★ ★ ★

— 2 —

إن فلز الفضة معروف منذ زمن سحيق ، منذ عصر الفراعنة والرومان .. وكانت الفضة عملة شائعة فى الدولة الإسلامية. يعتقد كثيرون أنها ترتبط روحيًا بصاحبها وتعكس حالته النفسية ..

ما هو مؤكد يقينًا أنها ذات خواص مضادة للبكتريا . وقد تكلم أبقراط عن هذا . وأوصى بوضعها مع اللبن حتى لا يفسد. وفى القرن التاسع عشر كانت وسيلة التطهير الأكثر شيوعًا خاصة مع الجروح المتعفنة والحروق ..

العرب استعملوا الفضة لتنقية الماء ، فكانوا يملئون قربة جلدية بالماء ثم يضعون فيها بضع عملات معدنية .. الفكرة هنا هى أن الإبل تهتز أثناء السير فتذوب كميات دقيقة من الفضة فى الماء ، وهى بالضبط الكمية المطلوبة للتطهير .

من الفضة تصنع بعض المراهم ، وتستخدم حديثًا فى علاج قروح القدمين المصاحبة لمرض السكري. لها كذلك دور مهم فى علاج الحالات النفسية والتوازن النفسى للجسم .

إن الفضة فلز غامض .. هى أقل قيمة من الذهب هذا صحيح ، لكنها أكثر غموضًا منه .. وبالنسبة للبعض هى أجمل وأكثر رقيًا ..

* * *

مر يومان ..

ذهبت إلى موظف الاتصال أسأله عن أخبار الحملة فى الشمال ، وكان أفريقيًا له عينان واسعتان مذعورتان .. قال لى وهو ينزع السماعة عن أذنه :

— « الأخبار منقطعة منذ يومين يا دكتور .. هذا غريب .. »

— « غريب ومقلق ؟ »

— « ليس لدرجة القلق .. لا توجد شبكة فى تلك المنطقة لذا لا تعمل الهواتف المحمولة .. لكن انقطاع اللاسلكى غير معتاد .. أعتقد أن المدير لديه أخبار .. »

هرعت إلى مكتب (بارتلييه) .. إنه مفتوح للجميع فهو لا يجيد الألعاب السخيفة التى يحبها المديرون. كان هناك مع آرثر شيلبى وباركر ، ويبدو أنهم كانوا يتبادلون دعابات طريفة جدًا ..

قلت له عندما التفت لى :

ـ « (برنادت) .. أقصد الحملة لم تتصل منذ يومين .. هل لهذا تفسير ما ؟ »

قال بلا مبالاة :

ـ « لا شىء .. هناك قلاقل سياسية فى تلك المنطقة .. حرب قبائل من التى لا يخلو منها بلد أفريقى .. لا عليك .. سوف يعودون قريبًا .. »

ـ « هل الهليوكوبتر هنا ؟ »

ـ « إنها فى الجنوب فى (باتورى) .. سوف تعيدهم عندما يتصلون ليخبرونا أن المهمة انتهت .. »

هكذا لم يرحنى قط .. لكن رؤية هذه اللامبالاة تنعش النفس بلا شك .. لا يمكن أن تحدث مصيبة مع هذا الوجه الرخو السعيد . غادرت مكتبه عازمًا على أن أعمل حتى أموت تعبًا ...

ونظرت ليدى ..

مستحيل .. لون الخاتم يزداد سوادًا كأننى ألبس حول إصبعى خاتمًا من شعر ..

ما معنى هذا ؟

ذهبت إلى الحمام ورحت أحاول جاهدًا أن أزيل اللون الأسود من عليه بلا جدوى .. هكذا دسست يدى فى جيبى المعطف وخرجت .. لا شك أن المجرمين الذين يسطون على مصرف فتلوث تلك الصبغة الزرقاء الدائمة أيديهم ، لا يشعرون بما أشعر به من حرج .. أنا آثم .. لقد فعلتها يا أبت ...

وفى قسم العظام نظرت ممرضة فلبينية إلى يدى فى دهشة ، ثم قالت :

ـ « دكتور .. هذا الخاتم غريب الشكل .. »

قلت لها وأنا أحاول أن أدارى يدى فى جيبى :

ـ « إنه من فضة .. أقصد كان كذلك .. »

قالت فى استمتاع :

ـ « أرجو ألا تكون عرضته لبخار كبريتيد الهيدروجين .. الفضة تسود لهذه الأسباب .. »

كبريتيد هيدروجين ؟.. بالطبع لم يحدث .. ولا يمكن أن يحدث من دون أن ألاحظ ، لأن رائحته اللعينة مميزة جـدًا .. رائحـة البيض الفاسد أو الـ .....

لما رأت حيرتى أضافت :

ـ « بينى وبينك دكتور .. أنا أعتقد أن الفضة مادة عجيبة .. إنها تشعر بروحك وتشعر بروح من اشتراها .. كان عندى قرط من فضة ابتاعه لى زوجى هناك فى (مانيلا) .. بدأ يسود مـع الوقت ولم أفهم تفسير ذلك ، ثم عرفت أن زوجى مريض جـدًا وهم يخفون عنى ذلك .. »

ـ « وماذا حدث له ؟ »

سالت دمعتان من عينيها وقالت وهى تخرج منديلاً ورقيًا :

ـ « مات طبعًا .. ظننتك تعرف هذا ! »

★ ★ ★

كنت متوترًا فعلاً فى تلك الليلة .. غسلت الخاتم بالكحول .. ثم جربت الكلور ، وهذا آذى بشرتى فعلاً ، دعك من أنه قد يفتـت

الخاتم نفسه فأنا لا أعرف تفاعل الفضة مع الكلور .. لـم أعـد أذكر حرفًا من علم الكيمياء كالعادة ..

فى النهاية أيقنت أن اللون ثابت ...

هل من أخبار عن تلك الحملة ؟

لا أخبار ..

المدير بدأ يقلق .. وقد اتصل بالهليوكوبتر كـى تتجـه إلـى (ماروا) لاستعادة أفراد الحملة. لن يتم هذا قبـل يـومين لأن هناك مهمة معقدة فى الجنوب قرب حدود الكونغو ..

أصبت بدرجة متقدمة من الإسهال حتى صـرت مـؤهلاً لأن يشكوا فىّ باعتبارى مريض إيدز. طبعًا لم أحاول فهم الـسبب .. التوتر يؤدى عمله كأفضل الملينات معى .. أعتقد أننى سـأكتفى بشرب الكثير من الليمون ، وهو قد يقضى على الإسـهال لكنـه سيصيبنى بقرحة معدية لا شك فيها ..

رحت وأنا راقد فى الفراش منهكًا بلا قطرة ماء فى جسدى ، أنظر إلى ذلك الخاتم الذى صرت أمقته فعلاً

لو لم يكن معى ذلك النذير المخيف لكنت أفضل حالاً ..

ماذا لو كان الكلام دقيقًا وكانت برنادت فى خطر ؟.. ماذا لـو كان هذا إنذارًا ؟

وكيف أمضى الساعات هنا كحيوان الماموث المتحجر. لو كنت زوجًا محترمًا لخرجت أبحث عنها ..

قررت أن أطلب إجازة غدًا .. سوف أقصد شمال البلاد بالطرق البرية ، وسوف أعرف كل شىء هناك ..

هكذا قضيت يومًا تعسًا بين الكوابيس ودخول الحمام والتحديق فى الخاتم طيلة اليوم ..

فى الصباح اتجهت وأنا أترنح لمكتب المدير لأطلب إجازة ..

ما إن دخلت حتى سمعته يصيح فى الهاتف :

ــ « كل هذا الصمت !! .. لقـد حسـبنا مصيبة حدثت لكم .. هل تعطل جهاز اللاسلكى ؟.. فهمت .. تعودون مساء اليوم ؟.. جميل .. جميل .. الطبيبة الكندية مرضت ؟ »

هنا سقط قلبى فى قدمى .. عاد يقول :

ــ « فهمت .. فهمت .. ليكن .. »

وضع السماعة ورفع رأسه ليرى نظراتى الخائفة .. قال على الفور :

ــ « لا تقلق .. مجرد تسمم طعام على ما يبـدو .. الأحـوال الصحية سيئة هناك .. »

ــ « تسمم طعام ؟ »

ــ « ليس بالضبط .. كانت تعانى حالة شديدة من الإسهال ! »

نظرت له للحظات ..

لو لم يكن هناك ما يدعى بالاتصال الروحي ، فأنـا أحمـق .. بالتأكيد هناك شىء ما كهذا. تذكرت عادة (الكوفيد) البدائية التـى تفترض وجود ارتباط فسيولوجى قوى بين الزوج والزوجـة .. عندما تحمل الزوجة يرقد الزوج فى الفراش ويئن ويتأوه !.

يبدو أنها ليست بدائية لهذا الحد ..

★ ★ ★

كنت جالسًا فى المساء مع (جيديون) فى المشرحة عاكفين على تحميض الصور التى التقطها لبعض الإصابات الباثولوجية المهمة. جالسين فى الغرفة المظلمة أمام حوض السائل المُظهر ، والمصباح الأحمر يرسل ضوءه الموجس المقلق فى المكان ...

هذه هى مهمتى منذ أسبوع تقريبًا .. لابد أننى حمضت له ألف صورة ...

كان يتفحص بعض السلبيات ، ثم نظر إلى يدى وقال بلا مبالاة :

ـ « ماذا أصاب هذا الخاتم ؟ »

ـ « لا أدرى .. »

نزع نظارته الغليظة المثبتة بسلسلة إلى عنقه ثم قال وهو يدقق النظر أكثر :

ـ « فضة .. كان عليك أن تنزعه قبل العمل هنا .. »

ـ « لماذا ؟ »

ـ « ثيوسلفات البوتاسيوم .. نستعملها أحيانًا فى تحميض الصور ، وهى من المواد التى تجعل الفضة سوداء .. هذا شىء يعرفه أى صائغ .. »

قلت فى دهشة :

ـ « ثيوسلفات البوتاسيوم ؟.. هل تعنى ؟ »

ـ « نعم .. لقد اسودّ الخاتم بسببها .. لكنى سأخبرك كيف يستعيد بريقه .. »

هنا راحت الغرفة ترتج ومعها الهواء .. وصوت المحركات يصم الآذان ..

فراك فراك فراك فراك !

قال وهو يجفف يديه فى منشفة :

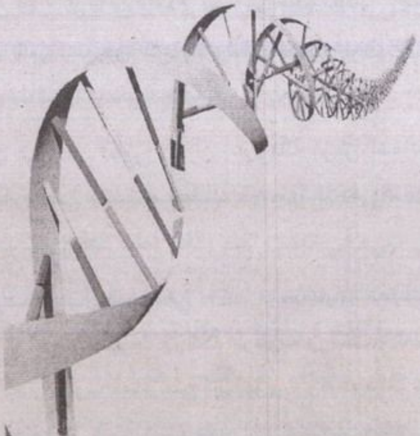
ـ « هذا الصوت .. إنها الهليوكوبتر عادت من (ماروا) .. أعتقد أن زوجتك معهم .. يمكنك الذهاب لتطمئن عليها ، ولكن عُد لى غدًا لأن هناك المزيد من هذه الصور .. ولسوف أخبرك وقتها كيف تستعيد هذا البريق .. إن الفضة كائن حساس .. حساس إلى أقصى حد وكان عليك أن تتعامل معه برفق وحذر ! »

أنت قرأت القصة .. كانت هنـاك قاعدتان تم التلميح لهما فى السياق. وبعبـارة أقرب للفهم كـان هناك تلميح لحرفين يتكونان مـن اللبنـات GCAU .. قد يكـون الحرفـان غير متشابهين مثل GU أو هما متشابهان مثل GG ..

هل عرفت الحرفين ؟.. هـذا هو رابع جـزء من الشفرة الوراثيـة للفيروس .. دوّنه بعنـاية على يميـن الحروف السابقة ، وانتقل للتتابع الخامس ....

تلمـيح : تـذكر الجـدول الـدورى .. تـذكر رمـوز العناصـر بالإنجليزية ..

تتابع القواعد الخامس



ليلة فى الاستقبال

– 1 –

ماذا ؟.. تعتقد أننى أقول كلامًا مكررًا محفوظًا لا يستند إلى خبرة ؟.. سوف أثبت لك العكس يا صديقى ، حتى وإن اقتضى هذا أن أدمى كبرياءك وأؤذى ثقتك الشامخة بعلمك .. يضحكنى هؤلاء الذين يعتبرون أنهم خبروا كل شىء وفهموا كل شىء .. هؤلاء متأهبون للسخرية منهم فى أية لحظة ..

لكن كى أحكى قصتى لابد أن أعود بآلة الزمن عدة عقود .. إلى أيام شبابى عندما كنت طالب طب موشكًا على التخرج وكان مراد قد تخرج فعلاً ...

تعرف استقبال المستشفى .. تلك المستشفيات العتيقة التى تفوح برائحة المطهرات ورائحة الرطوبة ورائحة المرض .. هناك جدار تشرب الماء حتى كاد يهوى ، وهناك دائمًا دورة مياه تالفة تحتاج إلى قنبلة هيدروجينية لأن إصلاحها مستحيل ..

كنت طالب طب خالى الذهن من المسئوليات ، ولم يكن فى الكون سبب يدعونى للعودة لبيتى مبكرًا .. لهذا وجدت الحل السعيد مع (مراد) صديقى ..

كان يقضى الكثير من النوبتجيات فى الاستقبال الكئيب ينتظر المرضى الليليين .. هناك لحظة معينة عندما ينام الجميع وتتوارى الممرضات فى مكان ما ، وكذلك العمال .. لكن الطبيب لا يجرؤ على ترك مكانه لذا يقضى الساعات الباقية على النهار وحده على مكتب صغير ، يشرب الشاى وينتظر .. حتى المرضى أنفسهم لا يأتون باستثناء بعض الكوارث الحقيقية التى لا تستطيع الانتظار حتى الصباح .. إن من يصل فى ساعة كهذه هو مصيبة تنتظر أن تحدث ..

اعتدت أن أمضى هذه الساعات مع (مراد) .. أجلس معه نتكلم عن كل شىء فى العالم ونحلم بالغد. أحدنا سيفوز بجائزة نوبل فى العلوم الطبية يومًا ما .. سوف يكون من الظريف أن نذهب للسويد معًا بطائرة واحدة .. هكذا نسلى بعضنا .. سوف أتزوج (سعاد حسنى) طبعًا .. هنا يتقلص وجه (مراد) غيظًا ويقول :

– « ولماذا أنت ؟.. سعاد ستحبنى أنا .. »

– « سيكون عليك أن تثبت هذا .. سعاد وردة ناضرة ومن الصعب أن تحب طبيبًا مثلك لا يتذوق الأدب ولا الفن .. »

هكذا نتشاجر على (سعاد حسنى) حتى يلعب النعاس بعيوننا فنقف للحظات ثم نجلس ثانية .. وهكذا تمر الليلة السوداء .. هو نعم بصحبة صديق ، وأنا جربت جوًا جديدًا ووجوهًا جديدة ..

رأيت (حسنى الشورى) للمرة الأولى فى واحدة من هـذه الجلسات .. كنا نتبادل المزاح عندما ساد جو من الصمت والتوتر ، ثم رفعت رأسى لأجد رجلاً كئيبًا فى الستين شعره أبيض تمامًا لكنه كثيف جدًّا .. وكان يلبس قميصًا مكويًا بعناية وله هيئة توحى بسعة الرزق ، لكن ذلك الوجه الكئيب لا يمكن وصفه بسهولة .. وجه حامل المصيبة وليس متلقيها ..

قال لـ (مراد) بلهجة مهذبة :

ــ « أعتقد أن ضغط دمى مرتفع .. هلا قسته لى من فضلك ؟ »

كانت الساعة الرابعة بعد منتصف الليل .. الفجر دان جـدًّا .. معنى هذا أن الرجل جاد فعـلاً .. نهض مراد ولف جهاز الضغط حول ذراع الرجل وأصغى قليلاً ، ثم قال وهـو يطلـق سـراحَ الهواء الحبيس :

ــ « ممتاز .. لا نوجد مشكلة .. »

توقعت أن ينصرف الرجل لكنه طلب الإذن بالجلوس .. وراح يحكى قائمة طويلة من الأعراض .. كان يوجه الكلام لنا معًا حاسبًا أننى طبيب متخرج ، برغم أننى لم أكن ألبس معطفًا. لكن (مراد) راح يهز رأسـه مستخفًا بالأمر ، ثم طلب من الرجل أن يعود للبيت ويحاول النوم ..

ــ « لا أستطيع .. أشعر بأننى سأموت لو فعلت .. »

استغرقت عملية الإقناع بعض الوقت ، وفى النهايـة تركنا ورحل ، ولم يعلق مراد ..

بطبيعة الحال لم أكن أحضر كل نوبتجيات مراد .. لكنى حضرت نوبتجية تالية بعد أسبوعين ، وفى الرابعة صباحًا سمعت صوت خطوات فى الممشى .. رفعت عينى لأجد ذات الرجل يقول بصيغة مهذبة محايدة :

ــ « أعتقد أن ضغط دمى مرتفع .. هلا قسته لى من فضلك ؟ »

هذا غريب !.. هذا الرجل يدمن قياس الضغط فى الرابعة صباحًا إذن ... من جديد راح مراد يقيس له الضغط وهو يكرر :

ــ « قلت لك إنك بخير .. مهما قسنا لك ضغط الدم لا نجد خللاً .. »

وهو ما كان .. ومن جديد دارت المحادثة الغريبة .. والرجل يقول :

ـ « أشعر بخوف شديد .. أريد أن أجد نفسى محاطًا بالمعاطف البيضاء .. هذا يمنحنى الشعور بالأمان .. »

ـ « يجب أن تدخر الذعر لظروف مهمة .. ليس لأى غرض .. »

وانصرف الرجل ، فملت على مراد أسأله همسًا :

ـ « لا تقل شيئًا .. إنه مجنون أو مصاب بوسواس قهرى .. أليس كذلك ؟ »

قال باسمًا :

ـ « لا أعرف إن كانت لفظة جنون تنطبق عليه أم لا .. لكنى متأكد من أنه تعس .. طبيًا هذه حالة أخرى من (متلازمة منخاوزن) .. أى داء إدمان المستشفيات .. البارون منخاوزن، هو المعادل الألمانى لـ (أبو لمعة) عندنا .. الفشار الأعظم .. لكن هذا الرجل ليس فشارًا .. فقط هو يدمن المستشفيات ولا يشعر

بالراحة إلا عندما يكون هناك ، حيث يغرق الأطباء ويحيرهم بأعراض غريبة متضاربة .. أحيانًا يصل الأمر إلى أن يجروا له جراحات استكشافية ، وفى النهاية يظهر من جديد فى ساعة متأخرة من كل ليلة ليذكر أعراضًا مقلقة .. هو لا يريد العودة لداره أبدًا .. »

ـ « وأنتم اعتدتم وجوده ؟ »

ـ « إنه غير مؤذ على الإطلاق .. فقط هو مزعج ومسكين .. »

لكنى برغم تفسيره اعترفت لنفسى بأن هناك شيئًا غير مريح فى الرجل .. ثمة شىء مخيف أو يبعث على التوجس ..

ـ 2 ـ

قلت إننى لم أشعر براحــة تجــاه الرجــل .. وبما أننى قرأت الكثير مــن قصص الرعب مــن قبــل ، فإننى توقعت السيناريو التالي : سوف تقول لى الممرضات إن الرجل مات فعلاً منذ عشر سنوات ، وهو يكرر هذا السيناريو كل ليلة فيزور مكان موته .. لن أندهش لو عرفت هذا ..

ضحك (مراد) طويلاً ثم قال :

ـ « كف عن السخف .. هذا رجل له ظل وضغط دم وضربات قلب ، وقد صورناه بالأشعة عدة مرات .. لو كان هذا شبحًا فأنا طيف .. »

هكذا بدأت أعتاد حضور هذا الرجل فى الرابعة صباحًا .. لا أحد يعرف أين يقيم ، لكن يبدو أنه عسكرى متقاعد على الأرجــح . هذا الجسد الرياضى برغم السن المتقدمة ، والوقفة المنتصبة ، وطريقة قص الشعر .. لابد أنه كان فى الجيش طيلة حياته ..

اعتدت حضوره لكنى لم أعتد منظره .. ثمة شىء فى طريقــة كلامه الهادئة أكثر من اللازم يخيفنى ..

إلى أن جاءت تلك الليلة .. كان (مراد) مصابًا بمغص شديد وكان يذهب للحمام كل عشر دقائق . طلب منى أن أنتظره فالأمور هادئة ، وهرع إلى الحمام كالعادة ولسبب ما تأخر كثيرًا .. لــم يكن يقصد الحمام القريب غير الصالح للاستهلاك الآدمى ، ولكن كان يقصد حمامًا نائيًا فى مسكن الأطباء ، جلست وحدى أتأمل المكان وأصدر أصواتًا أنادى بها القطط الضالة التى تحوم حولى . هنــا سمعت صوت الخطوات .. ومن مكان ما ظهر (حسنى الشورى) . نفس الوجه الكئيب المعذب .. ونفس الكلمات :

ـ « أعتقد أن ضغط دمى مرتفع .. هلا قسته لى من فضلك ؟ »

لم أجسر على أن أقول له إننى لست طبيبًا مــؤهلاً لأن هــذه مشكلة إدارية لصديقي. ما الذى يبقينى هنا أصلاً ؟. لذا طلبــت منه أن يجلس إلى أن يصل الطبيب المسئول عــن الاســتقبال .. جلس وعيناه لا تفارقان وجهى .. ثم قال بعد قليل :

ـ « لماذا تكثر النوبات القلبية عند الفجر ؟ »

هززت رأسى وقلت إجابة محايدة جدًا :

ـ « كل جهاز فى الجسم له وقت يعانى فيه .. »

ـ « بل لأن الناس تنام .. تحلم بالكوابيس .. فى الكابوس أنت تركض فعلاً .. تقاتل فعلاً .. تعانى فعلاً .. وهذا عبء على القلب .. »

ثم فكر قليلاً وقال :

ـ « اعتاد أفراد أسرتى أن يموتوا فى هذه السن .. بالذات فى الرابعة صباحًا وهم نيام .. نوبة قلبية دائمًا .. أبى يرحمه الله وجد وقتًا كافيًا ليفتح عينيه ويناديني ويقول لي : لا تنم الليل أبدًا .. نم فى النهار .. كن قريبًا من الأطباء .. ثم أغمض عينيه وخرج الزبد من بين شفتيه .. ومنذ ذلك الحين ينتابنى الذعر كلما تجاوزت الساعة الثانية صباحًا .. هذا هو موعدى مع الموت ! »

تذكرت على الفور (موعد فى سمارة) قصة (سومرست موم) الشهيرة .. أعتقد أن (سمارة) هى (السامراء) وإن كنت لست متأكدًا . كما تذكرت كذلك الشاعر الإنجليزى (بيرون) الذى كان يوقن أنه سيموت ليلاً ، لذا كان يخفى مسدسًا تحت الوسادة يرهب به الموت .. وكان يصحو فى منتصف الليل ليصرخ ويلوح بالمسدس ويطلق السباب . شاعرنا (أحمد شوقى بك) كان يملك ذات اليقين ، لذا كان يحتفظ بمعدات طبية كاملة جوار غرفة نومه ..

الموت ! .. كم هو مخيف ! .. كم هو ضرورى !

قال لى (حسنى الشورى) وهو يفرد ذراعه :

ـ « الطبيب تأخر .. أرجو أن تسرع يا دكتور .. »

نهضت لأنادى من يمكنه أن يتعامل مع هذا البائس .. اتجهت إلى الغرفة التى تنام فها الممرضات وقرعت الباب مرارًا ، حتى فتحت لى فتاة حديثة السن قصيرة القامة ، ناعسة مرهقة مبعثرة الشعر تفوح منها رائحة النوم .. قلت لها إن هناك مريضًا فى الاستقبال وإننى لا أعرف كيف أتعامل معه والطبيب غير موجود .. كنت أشعر أن المرضى شيء ضخم جدًا مخيف جدًا .. محيط من المسئولية لا يمكن أن أبلل قدمى فيه ..

هنا بدا عليها الفهم وقالت :

ـ « عم حسنى .. أليس كذلك ؟ »

أى رجل عجوز عند الممرضات هو (عم) .. إنها تعرفه . رأيتها تتجه إلى غلاية الحقن فتتناول محقنًا زجاجيًا وإبرة وتملؤه من أمبول زجاجى صغير ، وهى تقول :

ــ « إنه لا يهدأ ولا ينصرف لداره إلا إذا أخذ حقنــة مــا .. نحقنه عادة بالماء المقطر .. هكذا يعتقد أنه على ما يرام .. »

واتجهت إليه فأمسكت بذراعه وانتقت وريدًا ، قائلة :

ــ « لحظة واحدة يا عم (حسنى) .. »

كنت أنا أرمق ما يدور فى غباء .. هذا هو تــأثير البلاسـيبو الذى كنت أسمع عنه .. دواء لا نفع له ولا ضرر لكن المــريض يعتقد أنه شفى بفعل الإيحاء. لكن الرجل لم يبد مــستريحًا بعـد الحقنة .. رأيته يتنفس بصعوبة .. يتحسس صدره .. أقــسم أن شفتيه ازرقتا . ثم تهاوى رأسه وراح صدره يعلو ويهبط ..

فجأة ظهر (مراد) من مكان ما .. هرع يتحسس نبض المريض ويقيس ضغط دمه ثم صاح فى الممرضة التعسة :

ــ « ماذا حقنته به ؟ »

ــ « ماء مقطر .. كما نفعل معه كثيرًا .. »

ــ « ولماذا تصرفت دون أن تأخذى رأيى ؟ »

وتفحص الأمبول الفارغ وقرأ ما عليه .. (إيبنفرين) .. لقـد حقنت المريض بالأدرينالين فى الوريد ، وهــذا يعنى ــ كما قال مراد فيما بعد ــ أنها قتلته أو أوشكت ..

كانت الفتاة فى حالة هستيرية مرعبة ، بينما تحول الاستقبال إلى حافلة عامة بكل من فيها ، وظهر طبيب أكبر ســنًا وأكثـر خبرة تولى إجراء الإسعافات الأولية .. ثم نقل المريض للعنبر .

لقد نجا الرجل بمعجزة ما ، ولا داعى لقول إنه شفى للأبد من متلازمة منخاوزن .. لم يأت للاستقبال فى الأيام التالية . لكنــى ما زلت أتذكر القصة .. يمكن القول إنه كان سيموت بنوبة قلبية بسبب (النوم) فعلاً .. نوم الممرضة هذه المرة .. وفى الوقـت نفسه يجب أن نعترف أن هذا الهاجس هو الذى كاد يودى بحياته .. كان يخشى الموت فجرًا وهــذا أرسـله للمكان الذى يمكــن أن يموت فيه فعلاً. هذه من النبوءات التى تحمل فى طياتها بــذور تحقيقها . إن قصة (موعد فى سمارة) ليست خيالية جدًا كمــا ترى ..

* * *

قابلت الرجل بعد عام فى عيادة أمراض الكبد ..

كــان يعــانى التهابًا مزمنًا فى الكبــد ، وقــد عرفت السبب ببساطة .. كل الحقن التى أخذها بمحاقن زجاجية تم غليهــا .. فى ذلــك الوقــت لم يكن أحــد يهتــم بالتهــاب الكبد وكانــت المستشفيات لا تستعمل المحــاقن البلاستيكية التى يتــم التخلص بها بعد مرة واحدة .. كانت المستشفيات عن جهل وعن إهمــال تؤدى عملاً خلاقًا كمراكز لتوزيع التهاب الكبد .. والإيــدز فيمــا بعد طبعًا ..

التقت عينى بعينيه الصفراوين الذابلتين فلم يبد أنه تذكرنى .. لو أنك قابلت (روبرت دى نيرو) فلا تتوقع أن يتذكرك لكنك لن تنسى تفاصيل اللقاء أبدًا ..

لقد بحث البائس عن المرض طويلاً وقد وجده أخيرًا ..

أرجو أن يكون سعيدًا الآن ......

أنت قرأت القصة .. كانت هناك قاعدة واحدة تم التلميح لهــا فى السياق. وبعبارة أقرب للفهم كان هناك تلميح لحرف بين اللبنــات GCAU .. حرف واحد فقط ....

هل عرفته ؟.. هذا هو خامس وآخر جزء من الشفرة الوراثيــة للفيروس .. دوّنه بعنــاية على يمين الحروف السابقة ، وانتقل إلى الترجمة ....

تلميح : الأمر سهل هذه المرة .. فكر فى أنواع التهــاب الكبــد الفيروسى ..

طريقة ترجمة تتابع القواعد على شريط الحمض النـووى RNA :

(**هذا ما يحدث داخل الخلية فعلاً ولكن بشكل أعقد**)

1 ـ الآن استطعت الحصول على شريط حمض نووى RNA عليه القواعد مرتبة من اليسار لليمين .

2 ـ اقرأ تتابع القواعد على شريط الحمض من اليسار لليمين ثلاث قواعد فى كل مرة .

3 ـ كلما قـرأت ثلاث قواعد .. اكتـب رمز الحمض الأمينى المساوى لها حسب الجدول المبين أسفل الصفحة .

4 ـ ثلاثة رموز متتالية تصنع العنوان البريدى فـى يـاهوو الذى سترسل له خطابك !

مثال مهم للتوضيح : **لو كان التتابع بهذه الطريقة** :

AUCGAUAUAUAAUUAUAUAU

فترتيب الأحماض الأمينية من اليسار هو :

أيزوليوسين AUC ثم حمض أسبارتيك GAU ثم أيزوليوسـين AUA ..

نكتفى بثلاثة حتى لا تصـاب بالجنون !! تذكر فقط أن الخلية تحلل الملايين من هذه الرموز ومن دون جداول ، بمعجزة ربانية تدير الرءوس ..

الآن ضع الرمـوز (حسب الجدول) متلاصقة بالترتيب من اليسار لليمين هكذا مثلاً :

ILE + Asp + ILE

طبعًا لا مسافات .. أى أن العنوان البريدى الإلكترونى هو :

ILEAspILE@yahoo.com

لاحظ أن هذا مثال لا أكثر !!

هلم .. أرسل لهذا العنوان خطابًـا يحـوى ترتيـب القواعـد ويخبرنا أنك حللت هذه المشكلة ، وأنقذت العـالم مـن الوبـاء المميت !

رمز الحمض الأمينى	الحمض الأميني	تتابع القواعد
Lys	لايسين	AAA
Ser	سيرين	AGC
ILE	إيزوليوسين	AUA
ILE	إيزوليوسين	AUC
Met	مثيونين	AUG
Gln	جلوتامين	CAA
Gln	جلوتامين	CAG
Arg	أرجنين	CGC
Asp	أسبارتيك	GAU
Val	فالين	GUU
Tyr	تيروسين	UAU
Trp	تربتوفان	UGG
Cys	سستين	UGU
Phe	فنيل ألانين	UUU

خـــاتمـة

تأخر البروفسور (بوردو) كثيرًا فى الوصول إلــى تركيــب الفيروس ..

لقد مر يوم ونصف وهو فى المختبر مع مـساعديه اليابـانى والفنلندية ، ولم يعلن أى شىء بعد .. ويوم ونصف فــى عمـر فيروس نزفى بهذا النشاط قد يعنى الكثير ..

إن برنادت فى خطر فعلاً وقد بدأ النزف يظهر بوضوح تحــت الجلد .. هناك كذلك نزف واضح من مواضع ثقوب الإبــر فــى ساعديها ..

لكنك قد توصلت للشفرة الوراثية. أليس كذلك ؟.. صحيح أنها طريقةٌ عجيبة أقرب إلى إلهام الشعراء ، لكنها هى أملنا الوحيـد فى الوقت الحالى ..

هل يمكنك أن تنقذ (برنادت) وتنقذ العالم بالمرة ؟

سوف يصلنى خطابك على العنوان البريدى ، وفيــه ترتيــب القواعد فى الفيروس .. عندها سوف أبلغه للفرنسى ونختــصر الوقت والجهد..

أنا فى الانتظار ..

إما أن يصلنى الخطاب ، وإما لا يصلنى فــأدرك أن المــشكلة كانت أعقد مما توقعت ، وأننا ضعنا بالمعنى الحرفى للكلمــة .. وإننى لأرجو أن يخيب القراء ظني.

أنا فى الانتظار ..

بالطبع يســتحق مــن يفــوز أن ينــال جائزة نوبل لو كــان الأمر متروكًا لي ، لكننــا ــ لضيق ذات اليد ــ سنكتفى بتهنئــة الفــائزين العشــرة الأوائل ونشــر أســمائهم ، وربمــا نرتــب لهم هــدية مــع الموســم القــادم إن شاء الله . هديــة أقــل نوعًا من قصر فى الساحل الشمالى وأكبر نوعًا من (لكم حبــى وتقديرى) .

تذكروا يا شــباب .. (عــلاء عبــد العظيم) ينتظر .. بوردو العظيم ينتظر .. وحدة سافارى تنتظر .. العالم ينتظر ....

لا تخيبوا أملنا .

د. علاء عبد العظيم

أنجاوانديرى

سافارى

صدر من هذه السلسلة :

1 ـ الوباء .
2 ـ خاطفو الأجساد .
3 ـ الحريق .
4 ـ رقصة الموت .
5 ـ تجربة محرمة .
6 ـ أشياء تحدث ليلاً .
7 ـ الآن تراه .
8 ـ الكابوس .
9 ـ الفصيلة .
10 ـ العاشر .
11 ـ يوم ثارت الوحوش .
12 ـ أرض الجنون .
13 ـ تسى تسى ! .
14 ـ إنهم يعودون أحيانًا .
15 ـ الرجل الذى لم يكن .
16 ـ ؟ ؟ ؟
17 ـ دواء يقتل ..
18 ـ عام الأفاعى .
19 ـ الجمجمة .
20 ـ المرض الأسود .
21 ـ الماساى .
22 ـ قشعريرة .
23 ـ الانفجار .
24 ـ الآن نرجوكم الصمت .
25 ـ كليمنجارو .
26 ـ الظاهرة .
27 ـ H.I.V .
28 ـ توركانا .
29 ـ حكاية ثقب .
30 ـ قصاصات .
31 ـ الحادث .
32 ـ لماذا جنت الأبقار .
33 ـ زولـــو .
34 ـ حكايات من الناتال .
35 ـ رجال من رجال .
36 ـ هـــواء فاسـد .
37 ـ رجل الرمال .
38 ـ الأخيـــر .
39 ـ NDE .
40 ـ عن الطيور نحكى .
41 ـ سيد الجينات .
42 ـ ـ ـ ـ !
43 ـ إلى الشمال .

رقم الإيداع : ٢٣٧٧٤
٩٧٧ - ٣٧٨ - ٢٥٠ - ٢

روايات مصرية للجيب — سافارى



مغامرات طبيب شاب يجاهد
كى يظل حيًا وكى يظل طبيبا

د. أحمد خالد توفيق

P.C.R

إن الوقت يمر بسرعة ، والفرص تتقلص.. هذا الوباء النزفى الغامض يجتاح وحدة سافارى ، ويوشك على قتل المئات.

حاول أن تساعد (علاء) ، وخبير الأوبئة الفرنسى (بوردو) فى معرفة الخارطة الجينية لهذا الفيروس الجديد ..

الأمر ليس بالصعوبة التى يبدو عليها ، إذا ما قمت بتجميع الرموز التى تتناثر فى كل قصة ...

ماذا تنتظر؟ .. ابدأ الآن ....



الثمن فى مصر 500 مـ
وما يعادله بالدولار الامريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والاسكندرية

مطابع